# حيـــاة الايمـــان

رومانو كواردينى

# حيـاة الإيمان

رومانـو كواردينـي

العنوان الاصلي

**The Life of Faith**
**by**
**Romano Guardini**

**PAULIST PRESS – Paulist Fathers**
**GLEN ROCK.NEW JERSEY.1961**
**.New York,N.Y.and Paramus,N.J**

ترجمة :الأب حبيـب هرمز النوفلي
الآنسة أسـيل جوري
المصحح اللغوي سليم عتيشا
اللوحات الفنية: الفنان وسام مرقس

برخصة الرؤساء
بغداد – 1999

# المحتـويات


| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| تقديم | 7 |
| مقدمة المترجمين | 8 |
| مقدمة المؤلف | 9 |
| أصل الإيمان | 10 |
| الإيمان ومحتواه | 15 |
| أزمات الإيمان | 19 |
| الإيمان والعمل | 24 |
| الإيمان والمحبة | 28 |
| الإيمان والرجاء | 33 |
| الأشكال المختلفة للإيمان | 36 |
| المعرفة في الإيمان | 43 |
| الإيمان والكنيسة: العقيدة | 47 |
| الإيمان والكنيسة: السر | 53 |

# تقديــم

كل موضوع من مواضيع هذا الكتاب، يستحق أن يكون كتاباً مستقلاً، فكم بالمواضيع كلها مجتمعة. وورمانو كواارديني من اللاهوتيين المعروفين في القرن العشرين.

منذ المقدمة، ينبهنا المؤلف إلى ان الإيمان سرّ، ولا يمكن أن يفسر الا عن طريق الكشف الإلهي، وللمؤمن وحده أن يستوعبه. لذا يبدأ المؤلف، في الفصل الأول، بأصل الإيمان، وبعد أن يتحدث عن الشخص الذي عالمه كتاب مغلق، ينتقل إلى انفتاح الإنسان على الإيمان من خلال الاكتشاف بفضل العناية الإلهية، على الرغم مما في الإنسان من مجالات صراع دائم بين الشك واليقين، حتى يتحول المؤمن إلى إنسان يصرّح، كبولس،"لست أنا أحيا، المسيح يحيا فيّ." لماذا؟ لان محتوى الإيمان، وهو مضمون الفصل الثاني، ليس تعليما أو كتاباً، بل شخصاً، يتجسد في المسيح يسوع. ولا يعني هذا ان المؤمن لا يمرُّ بأزمات إيمان (مضمون الفصل الثالث)، لكنها الحياة تؤهله أن يحقق توازناً بين الإيمان والعمل (الفصل الرابع)، ويتم هذا التوازن بفضل المحبة التي تصبح هي حياة المؤمن (الفصل الخامس)، يذكيها رجاء لا يعرف المستحيل (الفصل السادس )، ويقدم لنا أمثلة معبرة: جداراً صخرياً لمنحدر تحرقه الشمس صيفاً، ويجمده البرد شتاءً، وتجتاحه الرياح الهوجاء التي تجرف كل ما ليس صخراً. بينما، حين تتجذر بذرة في عمق أرض وتنمو، فإنّنا نندهش أمام سر الحياة !.

وبعد استعراض الأشكال المختلفة للإيمان (الفصل السابع)، يتناول في الفصل الثامن موضوعا مهماً هو (المعرفة في الإيمان)، حار فيه المفكرون والمتدينون، ودونت فيه مئات البحوث، وآخر ذلك رسالة لقداسة البابا يوحنا بولس الثاني في (العقل والإيمان). وقد بات واضحاً اليوم، ان إيماناً لا واعيــاً ليس بالإيمان الحقيقي، وان للعقل دوراً كبيراً في عملية الكشف وصولاً إلى تعقل لا يكتفي بالنظريات والتجريد، بل يحاول تلمّس جوهر الحقيقة وعمقها، فيؤمن المرء بالوقائع والأشخاص اكثر مما بالأفكار والأشياء، ويبلغ كمالاً في النمو الإيماني بفضل الخبرة الشخصية التي أساسها علاقة حب، وهذا ما يسهل على الإنسان الإيمان بالعقائد والأخذ بتعاليم الكنيسة، لأن الشخص بل علاقة الحب في الأساس والقلب والهدف، ولا خوف علينا بعد ذلك من خطر الجمود أو مطبات الانجراف، لان الإيمان الذي يملأ الوجود هو غذاء الحياة ومجددها.

فلا عجب أن يكون الموضوع الذي اختاره عزيزنا الآب حبيب هرمز بالاشتراك مع الآنسة أسيل جوري، موضوعاً مهماً يستحق الاهتمام والتأمل، لذا فإني بكل طيبة خاطر أقدم هذا العمل لفائدة القراء الكرام.

الأب يوسف حبي

# مقدمة المترجمين

ان إعلان الإيمان هو من جوهر رسالة المؤمن، وهذا الإعلان هو نتيجة عيش الإيمان بتفاعل صميمي يشمل مراحل عمرية مختلفة. ولكونه متداخلا مع التدين والثقافات الدينية المختلفة ومتأثرا ببيئة المؤمن، لذلك يعاني المؤمن أزمات إيمانية تشتد أحيانا حسب الأسباب الموجبة، كطبيعة عمل المؤمن وموقفه من المحبة والرجاء، فتظهر في الواقع أشكال مختلفة من الإيمان .

ومن اجل بلورة الإيمان في مفاهيم معينة تحميه من التعرض للعواصف الفكرية والحياتية عبر الزمان، ظهرت العقائد كمحاولة للكشف عن الاسرار الإيمانية الكامنة في الكتاب المقدس، والحية في حياة المؤمنين.

ارتأينا ترجمة هذا الكتاب اللاهوتي المعاصر، لما للموضوع من أهمية، وللمؤلف من دور إيجابي في اللاهوت المعاصر، وكمساعدة بسيطة لأبناء جيلنا الجديد ونحن على أبواب الألف الثالث، كي نبصر جميعنا بعمق إيماننا، ونتجه نحو عمق الكيان الشخصي كاشفين عن جوانب خفية من اللؤلؤة الثمينة التي نملكها منذ ان تعمذنا.

# مقدمـة المؤلف

نواجه في الأناجيل باستمرار :
يظهر رجل بكيانه وقوة أعمالــه وبكلماته التي يتحرك الروح القدس من خلالها، يقول:" هذا أنا!"...."أنا هو الطريق، والحق، والحياة! "..."تعالوا إليّ، يا جميع المتعبين! "... "من يؤمن بي سيحي!" !الناس اخذوا بالملاحظة والاقتراب والإصغاء والاندهاش – راجين عوناً وصحة للجسد والنفس – فوجدوا كليهما – لكنهم لم يفهموه، فرحلوا.

بالطبع ثبت قليل منهم واتبّعوه حيثما ذهب، حيث كافحوا بصدق ليفهموا من هو ذلك الذي يقول، لكنهم لا يقدرون. أحاديثه تركت انطباعا فيهم، الاّ ان معانيها لا تدرك حقا.

انه يحيا ويشاهد أعماله تحدث أمامهم، ولكن كل شيء يبقى في النهاية سرا غير قابل على الاختراق بالنسبة للجماهير. يصف القديس يوحنا مشهدا سريا يرمز إلى هذه الحالة جيدا. التلاميذ هم في البحيرة والعاصفة عنيفة، وفجأة يظهر الرب على الأمواج، يصرخون إليه في خوف، لكنه يطمئنهم قائلا:" أنا هو " حينئذ يدعوه بطرس " يا رب، إذا كنت أنت؛ دعني آتي إليك عبر المياه " فيجيبه يسوع:" تعال " يخرج بطرس من القارب وعيناه مركزتان بعزم على الرب فيبسط قدميه على الماء، انها تحمله، وبعدها يرتبك بسبب العاصفة فيفقد سيطرته على نفسه ليبدأ بالغرق، لذلك كان على يسوع أن يأتي لإنقاذه وهو يقول:"يا قليل الإيمان، لماذا تشك؟".

هكذا كانت الفترة التي قضاها الرب على الأرض، داعيا حشود تابعيه خلفه، لكنه لم يقرّب في الواقع إليه أحد. لقد تغير كل ذلك أول مرة مع العنصرة عندما هيأ الروح القدس حضوره في الزمن والتاريخ الإنساني ليقود الناس إلى الرب. بفضله يصل الإنسان إلى المسيح، علاوة على انه في المسيح والمسيح فيه.

والان نأمل أن نتحدث عن هذا الإيمان، ليس بالتوغل إلى حد كبير في سر اصله الإلهي، لكن كخبرة نمتلكها في أنفسنا وفي الآخرين.

الإيمان بحد ذاته سر، ويجب أن يصدق بفعل الإيمان، ليس هناك شيء كنظريــة الإيمان الطبيعية التي بها وعن طريقها يمكن الاستدلال على وجود العالم، أو الإنسان لأنها تنبع من نعمة الله الخلاقة، من هنا لا يمكن للإيمان، أو بالأحرى للمسيحي الذي يعيش الإيمان أن يفسر إلا بواسطة الكشف الإلهي.

ان كل مؤمن يقدر فقط أن يفهم بالإيمان – إلى حد لا يفقد فيه بصيرته - السر، ليست غايتنا الان التحدث عن الإيمان كسر، ولكن عن علاقتنا به وما قد نلاحظه بخصوصه في أنفسنا وفي الآخرين، ليس بالطبع حول " الجانب الطبيعي" لان الطبيعة والنعمة هنا في تداخل متماسك على نحو معقد – ولكن بشأن ذلك الجانب الذي بالإمكان اختباره، مع ذلك يبرز السر الأساس للإيمان بأسلوب كهذا في التحليل.

# الفصل الأول

# أصل الإيمان

ماذا يحدث عندما يولد الإيمان؟ كقاعدة عامة لا نستطيع الحديث بسهولة، إذ ان هناك سبلاً عديدة للإنسان يصير فيها مؤمنا كسائر الناس. لكننا نقصد أن نضع مخططا لبعض معالم الطريق التي بواسطتها نأمل أن نجد طريقنا في هذه المتاهة.

سنبدأ بالشخص الذي لا يعلم شيئا عن الله الحي الذي يتكلم من خلال المسيح. إنّه يحيا باحتكاك مباشر مع الحقيقة، ومع مواضيع خبرته الداخلية والخارجية والتزاماته المهنية، وصراعه لأجل أشيائه الضرورية، ورغباته في الحياة واحتكاكه مع بقية الناس.

ان هذه الأمور تشغل حياته تماما، فعالمه كتاب مغلق، ولا يشعر قط بالحاجة إلى الآخر. ربما يكون قد شعر أحيانا بان هناك أشياء مقدسة وسرية، ولكنه عادة ما يتصورها كشيء ينتمي إلى العالم المباشر بحد ذاته، حيث يعمّ فيه ويجعله مقدسا، أو ربما يكون قد تضايق من أسئلة معينة: ان الحياة بالنسبة له سر مربك، وذلك من جراء ما تطرحه من تساؤلات كـ "لماذا؟" و"إلى أين؟ ". ان أية كلمة قد تستعمل لوصف اتجاه البحث الذي يبدأ مما هو قريب إليه، ويستمر إلى ما هو بعيد؛ هي صعبة البلوغ.

انه يعرف بالتأكيد عن وجود يسوع الناصري كشخصية تاريخية أيضاً، ويعلم انه كان ذا تأثير كبير، وان الناس يتأثرون به من الناحية الدينية حتى اليوم - ولكن هذا ليس مهما بالنسبة له. فالأشياء الآتية من لدن الله، هي في معظم أجزائها بشكل بدايات. فالله لا ينتج أحداثاً جاهزة الصنع، انه يمس الكائنات الحية، ويطلق الحركة، ويبذر البذرة، وفي بعض الأحيان تبدو الأعمال الإلهية زائلة خارجيا، ولكنها تواصل عملها في السر، وأحياناً تظهر ثانية في مكان آخر، واهبة جدية جديدة لصراع أخلاقي وإلحاح جديد إزاء أية مشكلة فلسفية أو تعامل مع علاقات إنسانية أشدّ واكثر تكريسا ومسؤولية. ان هذه الحقيقة الجديدة يجب أن تثير التساؤل،وينظر إليها كشيء غريب، ثم تدفع جانباً، ولكنها سترجع مرة ثانية بشكل أقوى، وحركة اكثر عمقا،وقلقا من الداخل.

قد تبدأ المناقشة عن الطبيعة الفكرية، ولكن هل هذا كذلك؟ هل ذلك ممكن؟ هل هذه هي الصورة الحقيقية؟ كيف توازن تلك والحقائق الأساسية للأفكار الفلسفية أو العلمية؟ وقناعات حياتي؟ ورؤى الأزمنة؟، فتتواصل المناقشات ذهابا وايابا، ولكن بواسطتها يحدث شيء آخر: إذ تكون حقيقة ذلك الأمر المعني اكثر رسوخا، فتصير أهميتها أوضح، ومنطقها اكثر خضوعا. أخيراً، ان فعالية العقل بأكملها تتركز على الصراع أما لأجلها، وإما ضد وجود الحقيقة. حقا ان الأفكار تعني بالفعل اكثر مما تبدو، فالوظائف الفكرية تخدم أيضاً لتتكلم كشاشات تحدث خلفها خبرات روحية اعمق. بالنسبة لبعضهم؛ قد يدور النقاش حول القضية الأخلاقية، فالضمير المصوغ أساساً والعادات الأخلاقية تجد نفسها في صراع مع روح الجماعة الجديدة التي لديها مطالبها، فقد يضطر أحدنا إلى الدفاع عن نفسه ضد شيء غير معروف، أو غير اعتيادي، والذي مع ذلك له طلباته. وقد نقاوم طلبات البطولة والنسك، أو نكران الذات التي تبعث الإزعاج جدا من الداخل ... أو ربما هو طريق حياة نحن بصدده.

إنّ المعنى الداخلي لحياة المرء الخاصة حتى الآن، هو عادات معينة، أو أعراف متفق عليها، قبلت كنموذج جيد ومناسب وكامل لوجود الفرد. أو ربما يكون سؤالا، أو احتكاكا اجتماعيا، أو مفهوما أساساً كالعائلة، أو تقاليد الجماعة ...، أو باختصار؛ قد يكون لنا وجود إنساني نتسلمه كحقيقة، وتضيفه التربية وتحدده فعالية المرء الشخصية التي لها مظهرها الخارجي المميز وموقعها ومعناها، وتحمل شيئا جديدا يظهر في الصورة. شيئا يتظاهر بكونه سلطويا، وحالا يبدأ الصراع، أما للمحافظة على هذا النوع من الوجود من خلال اكتفائه الذاتي المعتاد، وإما للتضحية به.

قد يفترض الجدال أشكالا مختلفة. فقد يكون هجوميا تارة، أو دفاعيا تارة أخرى. وكافتراض يبدو مضمونا، ولكنه يتبدد في ما بعد. فالسؤال يبدو انه يسكن في (بعدئذ)، لأنه بعد وقت؛ يطرح السؤال مرة أخرى. فالشيء الذي يبدو انه قد توّضح؛ يصبح غامضا مرة أخرى، ثم أخيراً يصبح واضحا اكثر.

تتناوب أوقات الانشغالات العميقة مع أوقات عدم الاكتراث التامة، حيث لا يلبث الشخص أن يفهم كيف ان أحداً هو بارد اليوم، ورافض وحتى عدائي تجاه المشاكل الدينية؛ يقدر أن يكون متحمسا نحوها. ولكنه لوقت قصير، وبرغم كل هذه التقلبات وبعد مدة ملحوظة من الزمن، يتضح له أخيراً: ان الله موجود حقا، والمسيح موجود حقا. والكنيسة أسست بإرادته، وأثبتت فعاليتها الخلاقة في التاريخ.

يشعر الشخص بنبضة الانتماء، ثم تبوء محاولته الأولى بالفشل وينحرف بعيدا، ويتعرض لخيبة أمل بسبب الضعف البشري الذي يجده هناك من جراء المستوى الثقافي الواطئ، وضيق الإشراف الروحي، فيقاوم بما هو غريب، أو متناقض. ولكن من خلال التفصيل ينضج الإقناع ويتجه نحو الحقيقة التي تدعوه، وهذا ليس مجرد ارتباط شرطي فحسب عندما يقدر الشخص أن يتهذب في ضوء تعاقب الخبرات اللاحقة، ولكن القرار النهائي الذي لا يمكن إلغاؤه هو الذي يصنعه.

انه يقيد شخصيته بقيد الولاء، إذ يلصق كيانه الداخلي بالحقيقة التي تواجهه. هذا التعهد يعبر عنه في المجاهرة بالإيمان، ويكتمل بفعل المعمودية، فيدخل المهتدي الجديد إلى سر خلق الله الأبدي في " الولادة من جديد بالماء والروح القدس.". انه يحمل الآن في داخله بذرة الحياة الجديدة، ويقف في مستهل الوجود الجديد، إذ إنّ شكلا جديدا للوجود يحث على الإدراك، ومن ثم تبدأ حياة الإيمان بجميع مهماتها متعددة الجوانب. ولكن ربما يكون الشخص الذي نتحدث عنه قد نما في الإيمان، وله والدان مؤمنان، وكذلك معلموه، وقد اخترقته الروح المسيحية التي تلوح فيها شخصيات التاريخ المقدس بشكل واسع. لقد انقضت طفولته في جو يحميه من العالم الروحي المسيحي. فالأشياء التي كان يتماس معها والأحداث التي اشترك فيها، فسرت بمعنى مسيحي سادته قناعة بالأشخاص الأجلاء، والمحبين الذين شاطر إيمانهم.

بعد أن انقضت مرحلة الطفولة، انحلّ غلاف الحماية، وبدأت الأمور تظهر كما كانت على حقيقتها بمعزل عن أي معنى مسيحي، وغالبا عكس اتجاهه، إذ قابل أناسا ذوي إيمان آخر دون أي اقتناع ديني مهما يكن، فوجد انه بإمكانهم أن يكونوا أصحاء، ونشطين، ومؤثرين، بل غالبا ما يكونون جديرين بالاحترام، مفعمين بالشخصية، وأحيانا يكونون اكثر نبلا، وأوسع رؤية من أولئك الذين عرفهم في حضن الكنيسة.

لقد أدرك كم كانت غالبية الحضارات القديمة قد فهمت بروح مغايرة كليا للروح المسيحية، أو حتى معادية لها، ومع ذلك لم يشك أحد في تأثيرها الذي كشفت الحياة العامة والوجود الجماعي للبشرية النقاب عن نفسها من حوله، واكتشف غناها واتساعها والقوة الخالقة والجميلة.

لقد صار حذرا من أعمالها، وسمح لنفسه بأن يتورط في صراعاتها، فيتضح له تدريجيا كيف ألهمها قليلا بواسطة المشاعر المسيحية، وكيف كان العالم غريبا عن المسيح، وكيف بدا العالم غير مكترث تماما له. فظهر العنصر المسيحي والكنيسة حسب نظرته اليومية إلى الأشياء؛ كشيء ضعيف، ومهجور، وشاذ مقارنة بالعالم الهائل. والآن اشرف على الإيمان، فمزقته الرغبة كي يتحرر منها، أو انه انحرف عنها تدريجيا حتى انه لم يعد يجدها هناك على الإطلاق، ولكن عندئذ ربما بعد مدة زمنية ملحوظة، صار وجها لوجه معها مرة أخرى بشكل واحد أو بآخر، وكل شيء ذكره حصل في المرحلة الأولى كان قد تكرر في الثانية باستثناء المناقشات وحالات التقدم والتراجع، فان الخبرات المتناوبة في أن يتأثر المرء ويتقدم، كانت ذات ميزة مختلفة لأنه كان أصلا قد امتلك كل شيء حقا، أو في الأقل بدا انه قد فعل ذلك، بالرغم من كل ذلك، لقد ولد الاقتناع ثانية على أية حال: الله يصير حقيقة، والمسيح يصبح جوهرا حقيقيا، والكنيسة تغدو لامعة في مجد سرها كله، وأخيراً تتم الخطوة الأخيرة حيث يربط ذاته ثانية برباط الإيمان.

الإيمان أما يكتشف، وإما يعاد اكتشافه، وفي أية حالة يبقى الاختلاف غير ممكن التنبّؤ به. فأية مسيحية يتم اختبارها؟. هل هي الأكثر مباشرة؛ أم الأكثر حيوية؟. قد يكون المسيح أول من يواجهه المرء، ومن ثم يرى فيه الباحث جوهر كل شيء وقوته ومجده، ومن خلاله يجد الآب ويقبل الكنيسة ... أو ربما الكنيسة هي التي يكتشفها الفرد أولاً، حيث تجذبه صلابة استمرارها وقوة كل ما تزعمه في أن يكون بغنى مضمونها الروحي، ولكنها تشير إلى المسيح أيضاً ... أو ربما هو الله الحي الذي يلوح قبل كل شيء من خلال الوعي وتصبح تدريجيا تلك الحقيقة والقداسة أوضح في حالاتها النقية التي يمكن فقط أن تؤخذ من فم المسيح، وفي الكنيسة فقط يتكلم المسيح بحرية دون قيد.

لا توجد هناك طرق موصوفة إلى الله، فهو يقود الإنسان حيثما يشاء، وعادة في طرق ملائمة للفرد، آخذاً بالحسبان ميزات الشخصية والمطامح الروحية والأوقات، والبيئة التي يعيش فيها، وبماذا يتأثر، فالعناية الإلهية تعمل في الأصل، ولكن قد يحدث أن لا يكون هناك انقطاع عن إيمان طفولتنا، وبالتأكيد يحسن بالتربية المسيحية الحقيقية الموجهة مباشرة نحو تحقيق نضوج ملائم، أن تهدف إلى هذا الغرض، وبرغم ذلك، فان الإيمان يمر دائما بأزمات، والإيمان الذي يعاش سابقا في بساطة جماعة العائلة، وهذا ينبغي أن يعاد إنشاؤه بشكل تام.

يتعين على الشاب في أثناء نموه أن يأخذ على عاتقه مسؤولية الإيمان، فلا يعد، بعد الآن أبوه أو أمه أو المعلم أو الصديق أو البيئة هم المسؤولون، ولكن هو نفسه المسؤول. فهو الذي يجد نفسه وجها لوجه مع المسيح والكنيسة، وهو الذي يسمع الكلمة الإلهية في وعيه، إذ ما من أحد آخر يقدر أن يعمل وكيلاً عنه.

عليه أن يستوعب ما تسلم حتى الآن، ويقف على أقدامه حاملا على أكتافه عبء المسؤولية التي ألقيت سابقا على الآخرين، وكل هذا يمكن أن تصاحبه أيضاً صراعات صارمة، وأنواع شتّى من عدم اليقين والشك والاستسلام والكفاح والبلوغ والتملك والخسارة مرة ثانية.

لا يزال هناك سبيل آخر نحو الإيمان، ربما أكثرها صعوبة، فقد يكون المرء قد نشأ مؤمناً، ولكن في محيط مهمل، إذ يعمل والداه على الممارسة الدينية الخارجية، ولكن كمسألة شكلية إلى حد كبير، ويكون معلموه ومدرسوه غير مكترثين، إذ يعدون العنصر المسيحي ظاهرة تاريخية فحسب، أو لا يعيشون ما يصرّحون به. لقد سمع الشاب الكلمات حقا، وتلقاها ولكن من دون أن يدرك أي معنى بها، فهو تعلم الأفكار ولكن لم يدرك قوتها. ان العلامات والشخصيات المقدسة ظهرت أمامه ولكن تبقى ظلا وغير حقيقية. تجتاح حوله مختلف الآراء المتناقضة، فقد تعود منذ الطفولة؛ وجود عقائد دينية مختلفة ولم يتعلم معنى الاقتناع الحقيقي أو المطلق، ربما لأنه شاهد بشكل جيد جوانب مختلفة، لأنه شاهد بصورة جيدة الجانب الضعيف في كل نظرية إلى درجة اصبح شكوكيا ازاء وجود أي دين إيجابي معين يتطلب التزاما محدداً.

لأجل تدمير هذا الإيمان الذي غالبا ليس هو اكثر من مجرد إيمان ظاهري، لا يتطلب الأمر صدمة كبيرة. وقد يضحى به لأجل الملائمة المجردة أو لأسباب شخصية قد تتبخر بسهولة حتى لا تترك أي شعور إطلاقا، وما تبقى ليس توقا أو إحساسا بالإرباك الداخلي، وان أي تحسس بالذنب الديني، أو الشعور بتملك قرارات مهمة لن تتخذ حتى الآن، ولكن ببساطة عدم الاكتراث والنزوع إلى الشك، وحالة كهذه تشبه أرضا قاحلة، حيث بإمكان الأشياء الجديدة أن تنمو بصعوبة، فالأفكار والكلمات والأشكال والحوافز وكل شيء صار شاحبا وفارغا. انها أسوأ من الرفض الصريح والتجاهل التام، وعموما ان أرضية كهذه يجب أن يسمح لها بالبقاء دون ان تزرع، أي قبل أن يعاد استعمالها لاستقبال بذرة الإيمان. وفي حالة كهذه، ينبغي لنا أن نمارس الصبر والثقة بأنّ الله لن يهمل خليقته، فالذي خلق مرة؛ يقدر أن يخلق مرة أخرى، وله القدرة بان يعطي نبضة جديدة حتى إن كان يبدو عملا مستحيلاً. فسواء أكانت المسألة تتعلق بهذه الحالات النموذجية التي درسناها حتى الآن أم لا، فان الطرق المؤدية إلى الإيمان؛ متعددة كتعدد الأشخاص.

على أية حال من الأحوال، إنّ ما يبدو بالنسبة للإنسان كتقدم في الصراع نحو الأمام، هو حقا دعوة وتوجيه الهي، ولكن الله يدعو كل واحد حسب طبيعته وبطريقته الخاصة. والسبيل الوحيد لان يصير الشخص مؤمنا يعني دائما الشيء نفسه، إذ تلوح حقيقة أخرى أمام الشخص الذي انغلق سابقا في كينونته الخاصة وفي عالمه الخاص، أمامه وفوقه. على أية حال قد نعبر عنها كحقيقة أخرى تنتمي إلى عالم آخر من قبل ومن بعد.

هذا الواقع وهذا الشيء الأبعد من نطاقه؛ يصيران اكثر ثباتا وينموان في القوة وتصير حقيقتهما وصلاحهما وقداستهما اكثر وضوحاً، ويتطلبان ولاء الشخص الذي شعر بالدعوة.

إنّ قرار ائتمان وجود الفرد الخاص إلى الواقع الغريب الذي يفوقه، وتضحية المرء باكتفائه الذاتي الخاص واستقلال عالمه الخاص، سيكون أمراً صعباً، وهذا يعني صدمة ومغامرة عنيفة.

قال المسيح:"من امتلك نفسه سيفقدها، ولكن من يعطي نفسه سيجدها." من هنا ينبغي للنفس أن تفقد ذاتها أولاً بإدراكها ان هناك هدفاً ثانياً، ومن ثم عليها أن تدرك ان ما وراء ذلك يكمن الهدف الحقيقي. والآن يبدأ الصراع بين الهدفين، اللذين قد يبقيان، ولمدة طويلة متضادين، إذ يسعى كل واحد منهما إلى حرمان الآخر ينبوع حياته، وكل واحد يحاول أن يسحب إلى نفسه القلب والعقل والقوة والحياة.

إنّ الصراع بين هذين القطبين يعني تقدم الإيمان، فهناك مظاهر وتقاربات مشتركة، وتناوب الشد والاسترخاء حتى يتزامن كلا القطبين ليكونا ما نسميه الوجود المسيحي المعبر عنه

بواسطة كلمات القديس بولس:" لست أنا أحيا، لكن المسيح يحيا فيَّ ." وبالطبع، فإنّ إمكانيات الشك باقية، بالنسبة إلى الله فهو دائما قدوس ولكنني خاطئ، والمسيح عادة هو من يأتي " من فوق " من الآب لا يمكن أبداً أن يطابق ما هو إنساني. أنا من هذا العالم في ثورة منذ الإنسان الأول، وعلاوة على ذلك تأتي وحدة حقيقية إلى الوجود، فالإنسان ليس الله، والله ليس إنساناً، وما زالت ماهية حياة المسيحي تتألف من وجود المسيحي في الله، ووجود الله في الإنسان بمبرر حقيقة ان المسيحية هي في المسيح. هذه هي الوحدة الصعبة الفهم، وهي اكثر من أن تشرح في مصطلحات الخبرة الماهية المجردة.

# الفصل الثاني
# الإيمان ومحتواه

تطرقنا في الفصل السابق إلى السؤال عن كيفية نمو الإيمان؟، ورأينا كيف نتقدم في الحياة نحو الله الذي يدعونا من خلال المسيح،وكيف نلتزم نحوه، والتغير الذي يأخذ محله بين ما هو من فوق، وما هو من تحت.

لقد تكلمنا كيف يبدأ ذلك، وكيف يتغير طبقا لطبيعة وظروف كل شخص أولا: ناقشنا حالة الشخص الذي يأتي إلى المسيح في مرحلة متأخرة من الحياة، ثم كيف نما في جو تقليد المسيح المحمي وتدريجيا يأخذ مسؤولية إيمانه، وأخيراً للشخص الـذي في جو الشك، أو الأديان المختلفة التي تقوده بالأفكار الدينية الذابلة أو الرموز الفارغة، يجب أن يجدد إيمانه ليصل إلى تحديد قيّم للمعتقد.

لقد رأينا كيف ان هذا يجب أن يأتي بمختلف الطرق، وكيف انّه حتى في وسط هذا التنوع، تؤدي تعددية المواهب والفرص دورها، ونصل للقول إلى ان هناك رجالاً يدعوهم الله.

لكن حتى الآن نادرا ما ننتبه إلى موضوع إيماننا. والآن يبرز سؤال: هل نقدر أن نتحدث عن الإيمان بدون التحدث عن موضوع الإيمان؟

لقد قيل أخيراً: انه ليس ذا شأن كبير، ماذا يؤمن الشخص مثلما هي جدية وشدة اعتقاد الشخص، الشيء المهم الذي يقال هو النوعية، القوة وعمق الفعل، الموضوع هو مناسب للقرار الداخلي والتأكيدات التي تأتي منه فقط.

آخرون يزعمون ان هناك مواضيع إيمانية عديدة تتغير حسب الأزمنة والأشخاص، وحسب ترتيبات وظروف الأفراد الخاصة، ولكن الشيء الأساس هو الحالة الدينية للعقل وحياة الوعي آنفة الذكر نحو المطلق المقدس.

لكن هذه ليست نظرة العهد الجديد نحو الإيمان، فما يسمى "الإيمان" ليس موقفاً دينياً عاماً يتم التمرين عليه بملاحظة المحتويات المختلفة كثيرا، وكثيرا ما هو خلاصة المعرفة التي تمسك كل أساليب المواضيع ولكن تبقى " معرفة " الإيمان في التحسس المسيحي الذي يملك فردية وخاصية مانعتين، الإيمان ليس مفهوم بركة شاملة يعانق عدداً من الأجيال المختلفة: الإيمان المسيحي والمحمدي واليوناني القديم والوثني والبوذي..الخ اسم لحقيقة واحدة، الجواب المعطى بواسطة شخص إلى الله والذي جاء في المسيح.

ان هذه تبدو للوهلة الأولى، أشبه بفكرة ضيقة ونظرة متعصبة، علاوة على اننا عندما ندرس المسألة نقدر أن نراها حتى من زاوية النظر الطبيعية، وهذا الادعاء إما هو محرر، وأما انّ مفهوم التسامح هو علامة بسيطة للضعف الفكري واللامبالاة الروحية.

قل لرجل مثلا الذي أعطى الآخر ليس احترامه وتعاطفه فقط، ولكن حبه الكامل متضمنا الجسد والنفس وكل كيانه: " الحب هو شعور عام تختبره مختلف أنواع البشر الواحد تجاه الآخر، أنت، أو شخص ما آخر، أو أي شخص على الإطلاق "، ربما سينظر هو بشك نحوك

ويتحول عنك، لأن أي جواب يمكن أن يعطى تجاه الكلمات التي تجرحه بعمق؟ إذا تكلم فإنه سيقول :"حبي ليس حادثاً مجرداً ! أنا لا اشعر بحب عام ملائم لي، أو إلى أي شخص إطلاقا ! حبي ينتمي إلى شخص خاص ويقوم ويسقط معه" .تلك هي المراهنة عند الشخص الذي هو حبي، والتي لا تقدر بثمن " هذا الشخص يفهمني حالاً عندما يجب أن أقول، ان الإيمان لا يُجتزأ من محتواه ".

الإيمان هو في محتواه، ويدرك بالشخص الذي يؤمن،والتصديق هو حركة الحياة نحو ذلك الذي فيه نؤمن، انه الجواب الحي إلى دعوة ذلك الذي يظهر في التجلي ويجذب الناس إليه بالنعمة.

ما هو إذاً، موضوع الإيمان المسيحي؟. إنّه الله الحي الذي يكشف عن ذاته في المسيح. ليس الله بصورة عامة الذي يفهم في حاسة غامضة او بطريقة مختبرية، ولكنه هو "الذي هو الله وأبو يسوع المسيح" . ما هو شكل الله المفروز هكذا؟

انه يحب العالم، لقد خلقه ويحرسه، لقد صادقه مع كل الموجودات فيه منذ القدم، علاوة على انه ليس العالم لكن يوجد فيه، مستقل عنه.... يأتي الشخص من الله ويعيش في الله، ويوجد في ذلك الذي يكافح من اجله علاوة على انه ليس الله ... يتجلى الله، في كل شيء وكل الخلائق تعلن مجده ـ برغم انه مختلف عن كل شيء خلقه، ويوجد في النور السري الذي لا يمكن الاقتراب منه والذي هو نفسه ... الله هو قريب، الله هو في كل مكان، انه فينا ونحن فيه، إضافة إلى ان مسافة الشخص عنه عظيمة لا تقاس، وهي مطلقة من نقطة نظر الشخص ... الله هو أصلنا والمكان الأبدي لكياننا ولوطننا ولهدفنا ـ على الرغم من انه غريب إلى درجة ان قلبنا يخفق بالخوف أمامه ...

ان صورة الله الحاضرة لدينا ليست سهلة، لكنها مملوءة بالتناقضات والأسرار مثلما في إيماننا، وفي الوقت نفسه، يملك أساساً وجهداً للتغلب على تغربنا وتوقنا إلى الماضي، رغبتنا ومقاومتنا، قربنا وبعدنا، معرفتنا وجهلنا.فالإيمان مملوء بمضادات الشريعة وبالمخاطرة ولا يمكن إدراكه بكلمة، انه الله لأجلنا بالضبط.

ومن اجل أن نكوّن صورة بسيطة لله ذات معنى اكثر فينا، يصير إيماننا سهلاً وذا معنى أوسع مثلما تصير صورتنا عن الله سهلة وذات معنى اكبر ـ يمكن التسليم بان البساطة الحقيقية تحتوى احتواءً كليا في حياة الوحدة ـ كذلك إيماننا أيضاً يصير بسيطا.

ان إيمان أولئك الناضجين حيث الله ينضج من هو في طريق القداسة، هو إيمان بسيط لكنه تبسيط للنور المتضمن في وضوح كل طيف الألوان، النهاية لا البداية.

حتى الآن يجب علينا النظر بقرب إلى هذه المسألة، من هو هذا الإله الحي الذي يختفي من أمامنا في شخصية المسيح (الإنسان) وفي كلماته وتصرفاته وكيانه.

يعني السؤال من هو؟ يشبه ماذا؟. عندما أدعو أحداً، فأنه يدير وجهه نحوي. ففي النظر اليّ وانتباهه نحوي، فانه يعلن عن نفسه لي، ثم يعلن نفسه بـ " أنا " في الالتفات والنظر نحوي، والتحدث معي، أكون أنا " أنت " فمن هو إذاً الله؟. ما نوع الوجه الذي به يلتفت نحوي عندما ادعوه،والذي يدعوني إلى أن ادعوه، بينما أولاً يعطيني العلامة؟

إذاً، هناك عنصر سري. فعندما ننصت إلى يسوع وهو يتكلم، فإنّنا نلاحظ الطريقة التي بها يحب الله بواسطته ونحوه،وكيف ان" الله" يتحول نحونا في كل كيانه وكلماته وصوته.

هناك أولاً، الوجه الذي يشير يسوع إليه عندما يتكلم عن الآب كطيف جلالته الذي هو بداية ونهاية كل شيء، الخلق والسيطرة، التوقع والإرشاد نحو الهدف الذي يصاحب القضاء منذ الأبد.

إنّ كل شيء يأتي منه ويرجع إليه. فالصلاة الربّية تعبر عن هذه العلاقة بين الشخص وبين الآب، والتي تشير الأمثال إليه... لكنْ هناك وجهاً أيضاً يظهر عندما يقول يسوع: "أنا "عندما يقف أمام الآب، أي عندما يستحضره، أو يعمل إرادته، وعندما يعلن أنه والآب واحد، وفي الوقت نفسه يخضع نفسه إلى إرادة الآب بالطاعة، أو مرة ثانية حينما يؤكد أن لا أحد يعلم الآب إلا من خلال الابن.

هذا هو الوجه الآخر ذو الميزات والاتجاهات المختلفة، انه يدعى الابن أو" الكلمة " بواسطة القديس يوحنا... مرة أخرى هناك وجه آخر عندما يتكلم المسيح عن"المعزي " الذي سيرسل بواسطة الآب، الروح الذي سيقود الناس إلى حقيقة يسوع، والذي سيأخذ من خاصته ويعطي الناس، الفارقليط الذي سيعلّم الناس أن يقولوا:"أبا، الآب "وينطقوا " الرب يسوع " ويحملوا الشهادة له. هذا الأخير هو الوجه المختلف على نحو ممكن إدراكه من خلال الاثنين المتقدمين، هذا، انه شخص آخر، يختلف بميزات وجهه ونظرته ونفسه مثلما هي الحركة التي بها وجد.

لكنّ كل هذه الأوجه لا يوجد فيها وجه بجانب الآخر، انها متضمنة واحداً في الآخر، الآب هو ما هو لأنه أبو الابن، انه ليس" الآب "بحسب المعنى العام للكلمة في الأديان المقارنة، انه يجب الاّ يحشر مع تخيل الآب الإلهي عند مختلف الشعوب، رب السماوات، انه أبو ذلك الابن الذي هو المسيح، انه ظهر لنا فقط من خلال الابن، فقط من خلال الابن نقدر أن نصل إليه.

الابن هو نفسه، لأنه ابن الآب، ومجده يأتي من الآب ويعود إليه، وكل حياته كرست لعمل إرادة الآب... أخيراً في الروح، الآب والابن متحدان بألفة بواسطة رباط المحبة. يأتي الابن بالروح إلينا من الآب محمولا بواسطة مريم العذراء، عاش وفكرّ وعمل بالروح.

يرسل الابن الروح إلينا من الآب الذي عاد إليه، فصار من الممكن الوصول إلى الآب والابن بواسطة الروح، وصاروا حاضرين فينا، وأعطوا لنا. ان الآب والابن والروح القدس متميزون إلى الأبد في وحدة الحياة الإلهية نفسها، انهم يخلقون لكنهم إله واحد، وخالق واحد، ورب واحد.

لذلك يعني الإيمان؛التصديق بهذا الإله، الإيمان المسيحي موجه نحو اوجه الله ولكن نحو وجهه كما هو. الإيمان هو مثل " هو " الذي إليه يتوجه كل شيء، انه يوحدنا مع الله الواحد والثلاثة معا، وهنا تنعكس طبيعة الله. ما هو معنى تلك المعالجات التي في آيات الكتاب المقدس، والتي تنطوي تحت قاعدة الإيمان، والتي تخلق الحياة الجديدة؟، الولادة الجديدة؟، لا يمكن لهذه أن تفهم في حاسة شاعرية كتعبير غامض ولكن تؤخذ جانبا.

ان ولادة الإيمان تعني أن تتم من داخل رحم الله الخالق. لقد مات الكيان القديم، وولد كيان جديد.

ان تصور الحياة الجديدة هذه يأتي من الله نفسه، ويعني ذلك ان المؤمن يمكن أن يستعمل التعبير المشتق من مصطلح " The same blood" مثل الله، لذلك يربط القديس بولس الإيمان بالعماذ، سر الولادة الجديدة الذي يظهر تجسد الإيمان الكامل.

يمتد النسب الإلهي إلى الأقانيم الثلاثة للثالوث الأقدس. وبواسطة إيمان المسيحيين يدخل في علاقة عائلية مع الأب وابنه أو ابنته حيث ينحني أمام جلالة الآب، انه يسلم بثقة كل ما له إلى الآب ويقبل إرادته ويصل إلى خاصته، هذه كلها تأخذ محلها من خلال الابن نفسه. فالاب مخفي، انه يعلن فقط، ففي الابن الذي له أب، عندما نكون " في المسيح "عندما ننظر إلى الآب معه، عندما نطيع ونحب معه، عندها سنكون وحدنا "وجها لوجه " مع الآب و "نرى" الآب.

ان الإيمان الذي يوحدنا مع المسيح له طبيعة خاصة، يهيئ قرابة خاصة مع الله. فالمسيح هو اخونا كـ "المولود الأول من بين كثيرين " انه سيدنا الذي يرينا " الطريق والحق والحياة "، انه الواحد الذي مات لأجلنا وقام ثانية، الذي ينفذ إلينا بطبيعته المتحولة، ويؤسس فينا صورة الإنسان الجديد وهو مؤسسنا في وحدة الخلق الجديد ... مرة أخرى.

فعلاقة إيماننا بالروح القدس مختلفة. انه المعزي فينا، الواحد الذي ينير عقلنا وقلبنا، انه يجلب المسيح إلينا، ويعلمنا أن نتكلم، وأن نصلي، وان نعترف بإيماننا وصراعنا، انه الشعلة والعاصفة والنور ورباط الحب.

على أية حال، هناك الإيمان ولكن بأشكال مختلفة، وهناك روابط قرابة ولكن مع مختلف الأقانيم الإلهية، الإيمان بالآب شيء، والإيمان بالابن شيء آخر، والإيمان بالروح لا يزال مختلفاً، ولكن لا أحد يقدر أن يفصل أحدهم عن الآخر، كل واحد يسند ويكشف ويخترق الآخر.

ان هذه الأشكال الإيمانية تتضمن إيماناً واحداً مثلما الأقانيم الإلهية هي اله واحد، وهي مسألة عميقة وتصير مألوفة لنا اكثر فاكثر كلما صرنا متحررين من غموض مختلف المفاهيم، ونرجع إلى الإعلان المهيأ لفهمنا كما هو، لا كما نفكر بأن يكون على وفق حكمتنا أو حماقاتنا الإنسانية.

كلما كان إيماننا أقوى كان أوضح واكثر إنارة، وإذا كان اكثر تأثيرا يصير أشكالا مختلفة لأوجه الله التي تؤشر مختلف الصور والعلاقات الناضجة ووحدة حياة الإيمان هذه. ولكنه مع مختلف الأشخاص هو مختلف، بعضهم يبدأ بالإيمان بالآب، ربما بدون أن يعلموا ان الآب هو ملك في الابن فقط، فبالنسبة إليهم الإيمان يعني بسهولة أن نكون تحت حماية الآب.

ان البداية بنقطة الإيمان تلك ستتطور تدريجيا وتستكشف مختلف اوجه الله ...الآخر يحسب أولاً المسيح بشكله التاريخي، وكلماته في الكتاب المقدس والمسيح سيقوده إلى الآب والروح... أخيراً الشخص الثالث أولا: متيم بأعمال الروح، وسيماء القديسين وصوت الكنيسة، وفي هذا الأسلوب يدرك القوة الإلهية، وفي وسط كل هذه الاحتمالات فان الضمانات الأبدية هي التي تهيّؤه إلى إلزام نفسه بالإيمان إلى الأبد

أخيراً، ان الابن والآب سيعلنان له، لا يوجد قانون في كل هذه، فالله أعطى كل واحد طبيعة وشكل الحياة، ويدعو أي واحد كما يريد.

# الفصل الثالث

# أزمات الإيمان

بدأنا مناقشتنا بالسؤال عن كيفية بدء الإيمان؟، لان قسماً من النقاشات قادتنا إلى نقطة محددة، يبقى الأصل النهائي لعيش الحياة العملية غير ممكن فهمه. فإذا سألت شخصا مؤمناً وقادراً على فهم نفسه: لماذا نؤمن بالضبط؟ فسيجيب فورا:" لان هذه الحقيقة تقنعني ...،لأن هذه أو تلك القيمة تجذبني ... لأنني أرى في الإيمان إمكانية الإنجاز الإنساني أو الديني الأخير ..." ثم يضيف بدون شك:" لكن ذلك ليس السبب الأخير لإيماني، وكتعريف أخير، أؤمن بان المسيح موجود حقا " لكن ذلك يعني:" إنني أؤمن.". لكي يكون الشخص مؤمنا، فإن تلك هي البداية انه ليس شيئا مستنتجاً من سوابق نفسية أو عقلية. للتأكيد، يقدر الواحد على أن يقدم عادة الأرضية لذلك، ويجد التفسير، أو يتزود بالبراهين، ويستطيع أن يستكشف الأفكار الأساسية النفسية، أو يبدأ بخبرات محددة، ولكن يبقى الإيمان كبداية للطبيعة الوجودية، وكمثل لا يمكن أن يستنتج من أي شيء.

لا يمكن أن يختبر أي تقابل مع طريقة عالم المنطق التي ترسم استنتاجا نهائيا من مقدمات محددة. إنّ المعالجات تشبه بنسبة كبيرة طريقة نهوض النائم صباحا، أو افضل من ذلك، طريقة بزوغ الطفل من بطن أمه ليبدأ وجوده، هكذا الإيمان، ينمو ويفتح عينيه ويولد. أو أي تعبير نستعمله للدلالة على حقيقة ان له بداية حقيقية، بناءً على ذلك الكل يحاول أن يشرحها في مصطلحات منطقية او فسيولوجية أو أخلاقية تسبب الفشل بسهولة.

إنّ حقيقة الكون ( من كلمة كيان، أي تكون كيان الإنسان)هي في عيون رجل المنطق، كحقيقة " حياة جماعية " ولها جذورها في حد ذاتها، ولكن هذه " الجماعية "هي نقض لأي نوع من التفكير المنطقي، انها تماما استعارة تعتمد على هذا النوع من البداية النقية. يمتد خلف عدم التأثر الغامض هذا والذي يغلف بداية الإيمان؛السر الأعمق : أي إن الإيمان هو عمل الله، وكل تلك المعطيات الفكرية ومراحل القدرة على فهم العواطف المسببة بواسطة القيم الدينية والتلاقي مع القديسين، هي مواد الحرفي الحقيقي ( أي الله ) التي تصاحب عمله..

إنّ كون الشخص مؤمناً، هو تأثير العمل الإلهي الذي يلمسنا، ويحولنا، وينيرنا، ويرسمنا، بينما يبقى محجوبا في سر النعمة، ولا يقدر النفساني أو التفكير المنطقي أن ينفذ هناك، ولكن الإيمان أيضاً له الجانب الإنساني النقي، فهو مولود وينمو طبقا لقوانين محددة، لذلك من المنطقي تماما أن يتخذ وضعا خاصا نحو مشكلة خبرة الإيمان، ونحن سابقا بدأنا بعمل ذلك في العلاقة مع نشوئها.ومن اجل تجنب اختصار الإيمان إلى تدين مبهم، رافقنا فعل الإيمان مع محتواه،ولاحظنا مطلقية اتكاله المتبادل.

الإيمان هو فعل يعتمد على حقيقة الله الدقيقة،حيث إنّ القوانين والتراكيب الطبيعية للسلوك الديني ليست وثيقة الصلة به، ولكن علم الدين المقارن عمل كثيرا حول هذه النقطة، وأراد اختصار الإيمان المسيحي إلى شعور ديني.

ان الشيء المهم لنا، هو طبيعته، ولكن هذه يمكن أن تفهم في العلاقة مع محتواه فقط، وهنا نخطط هذه بتحفظ. والآن دعونا نستمر في نقاشنا، ونسأل أنفسنا :ماذا يحدث بعد أن يستيقظ

الإيمان؟.أساساً، ان كون " للإيمان تاريخ"؛ هو مسألة تاريخية، ومع انه منبه، فانه غير محدد وكامل، إنه حياة وكل شيء حي هو في طبيعة ملائمة.

الإيمان أيضاً ملائم وله أطوار تطور مختلفة، له ارتفاعه، وانخفاضه، وأزماته، ونموه الهادئ، ان الملائمة بالنسبة للإيمان لها طبيعة متعددة. فتاريخه يتضمن كل الإنسان وفرديته وقوته وضعفه ومزاجه وكأي تأريخ، فإن تأريخ الإيمان يكون مفقودا في غموض القدر غير المبالي. ولكن،وكما مع بقية التواريخ، له معالم ثابتة محددة علينا أن نسجلها بحيث تساعدنا على أن نجد طريقنا في الحياة المتنوعة، بدون التفسير الجانبي لأصالتها. لقد وجدت أنماط كل الأنواع في تاريخ الإيمان، ويجب أن ندرسها من خلال اغلب نقاط الرؤية واسعة الاختلاف. فنسأل أنفسنا فيما إذا كانت هناك أية أزمات واعية للإيمان؟.

تلك هي بالتأكيد اغلب الأنواع المتعددة.، بعضهم يأتي، على سبيل المثال، من تغير في البيئة أو من إزعاج الأحداث الإنسانية، مثل الانكسار في الرابطة العزيزة على الشخص، أو من الحظ الجيد أو السيئ، أو من الاضطرابات المادية أو الروحية.. الخ. يجب أن نركز انتباهنا على الأزمات المثارة بالحالات المحددة التي تغير شكل لحياة الإنسانية.

لقد قيل بصدق: أن نحمي الطفولة بالصـَدَفة المغـّلفة. وان اهتمام الوالدين والمعلمين والموقف العفوي لأغلب البالغين لإحاطة الطفل بالغلاف الجوي المحمي حتى يكون قادرا على أن ينمو بدون خطر محاط بالتأثيرات الكريمة كليا، ولكن الاهتمام بالبالغين بحد ذاته غير كاف للخلق والمحافظة على هذا الجو، فهناك أيضاً الحاجة إلى التعاون الفعال من قبل الطفل.

انه الطفل نفسه الذي يخلق هذه الحماية طبقا إلى تطوره الخاص إنّ الطريق الذي فيه تدرك الحقيقة _ خلف نقطة محددة لا يقدر أن يرى الأشياء نهائيا، أو يراها بغموض فقط_ . إن عادة ربط المواضيع والأحداث حسب وجودها بسبب تعليم المعنى لهم، أو تحويلهم، تخلق بيئة محمية حولها. فكل شيء يميل إلى أن يبدو مربكا، الداخل والخارج، الحقيقة والأسطورة، فالعالم والإيمان مزجا معاً، والأشياء كلها تبدو للطفل بوجه عائلي وودي، وكل شيء حاضر لمساعدته.

ولكي نكون واثقين، فان الأمر ليس دائماً هكذا، ان الكثير من خبرات الأطفال، هي مشوشة ومتوترة وبعمر مبكر، الكثير لا يعرف الوجود المتناغم للطفولة والمصور بعناية. هم يختبرون مشاكل من مختلف الأنواع: الألم والشعور بالظلم والرغبات غير المقصودة، علاوة على ان الشكل الأساسي لوجود الطفولة يتضمن بيئة محدودة ومحمية حيث الحقائق متناغمة وممتزجة معاً، وفيها تكون الحياة مربكة في العالم والعالم الآتي والحقيقة والأحلام والنفس والجسد والأشياء.

إن هذه الحالة للعقل، تقرر إيمان الطفل، فمهما كانت الاختلافات فالشخص يجب أن يلاحظ الإيمان في هذا الطفل أو ذاك، وقد ولد في عهد من الثقة. وكي نكون متأكدين؛ فان المشاكل تتجه نحو الظهور، ولكن تبقى مهملة أو في حيرة.

ثم تأتي سنوات المراهقة. ففي البداية يضعف، ثم يستيقظ الحافز العظيم في الرجل الصغير بقوة عظيمة دائمة وعزيمة تقوده نحو أولئك من الجنس المقابل، وتؤدي به إلى البحث عن العالم في ملئه، وهو يبحث عن عمله المناسب والتطور في شخصيته.

ان هذا النشاط يحتمل أن يوصف بطرق مختلفة، من وجهة نظرنا، رأينا ان الشيء المهم، هو ان هذا النشاط سوف يعرضه إلى اللانهائية، ويجبره على أن يزيد ويوسع من وجهة نظره، لكي يستولي على العالم بأكمله من اجل أن يتفاعل مع الإيمان. وفي الوقت نفسه فان المراهق يتمنى أن يكشف عن نفسه، وعن كيانه عن طريق معارضته لكل ما يجعله مقيداً أو محدداً.

إن المراهق سيعارض مرحلة الطفولة، خصوصا وجهة نظره المحدودة، حمايته الودية، الدفء المحيط به، والآن اصبح هذا غير محتمل بالنسبة له. فقد بدأ يشعر بأن أفكاره قديمة، سلوكه ورموزه أصبحت جميعها محدودة بالنسبة له، لذلك يجب أن يتغلب عليها أو تلقى بعيدا.

وهكذا مع حياة الإيمان، فإنّ الأشكال الدينية والدوافع والصيغ والقوانين الدينية وجميعها كانت تعد إلى الآن سليمة، أما الآن فقد أصبحت غير ناضجة وطفولية وبليدة ومربكة.

ان سلوكه الديني الكامل يدخل في أزمة من الأزمات التي من المحتمل أن تعبر عن نفسها في طرق مختلفة واسعة كالنقد الفكري أو الرفض بصورة أخلاقية، أو في شعور يعارض الأجيال السابقة، أو في تمرد ما، أو في معارضة ضيقة للأسلوب السابق للوجود ...الخ. ولكن الشيء الأساس في مثل هذه الحالة هو التغير في الحياة الداخلية التي تبحث عن مجال وتغير للواقعية الجديدة في عملية كيان المولود.

انه من الأقل أهمية معرفة كيف تعمل الأزمات بعيداً في التفاصيل: فمن المحتمل ان العقيدة الفلسفية تصبح عميقة أو اكثر إقناعاً من الناحية الأخلاقية، أو الكشف عن القيم من خلال الاتصالات الجديدة بين البشر.

من الممكن أن تؤسس وتكشف نماذج أو صداقات تقود إلى سلوك جديد نحو الإيمان. على أية حال؛ عندما يتغلب على الأزمات كليا، وهذا بدوره يقود إلى صياغة جديدة لوجود الإيمان،، يبدو ان كل شيء ينحدر إلى هذا الشيء.

ان الشخص صغير السن، يدرك ان الدافع الحيوي الجوهري لهذا الانبعاث يجسد ميدانه المناسب في الواقعية المسيحية، فمن السهل أن يكون في الإيمان شيء من الحرية والإبداع الشخصيين.

ان الإنسان سيدرك، ان جوهر الإيمان ليس مطابقاً تفسيره الطفولي، وانه سيخلص نفسه من هذه الأشياء،ويكشف عن أشياء أخرى جديدة أقوى واكثر ملاءمة لإيمانه الحالي. ثم إن الإيمان سينمو بصورة رائعة، ويمكننا أن نعد هذا انه صبغة نموذجية أو شديدة الحماسة، إن في الإيمان هذا يكون شجاعاً وواسعا وأكيداً.

ان الإيمان يكشف عن شجاعة الروح التي تمكنه من إنجاز عمل عظيم، واكتساب قوة عظيمة وحساسة. فالحياة التي ليست معروفة منذ حقبة طويلة ويجب أن تكون بحاجة إلى شيء مهم جداً. هذا السلوك ينمو بسرعة ويستمر لمدة طويلة أو قصيرة من الزمن، استنادا للظروف وقوته الداخلية، إلى أن يدخل في وقت الأزمات.

إن هذا النوع من الإيمان، ككل التفاعلات الشبابية؛ يملك شعورا نحو هذا العالم الواسع، الإيمان يملك قوة لكي يعطي نفسه بأكملها إلى مالانهاية، إنّه يتقد بالأفكار والخيال ويملأ بالجودة. انه لم ير الواقعية كما هي عليها، ولا مواقف البشرية ولا وجودهم في كل قساوته.

فالإيمان غيّر جميع هذه الأشياء بواسطة قوتي قلبه وعقله، حيث كلتيهما تميلان إلى أن تصيرا مثاليتين وتطبقا أسلوباً معيناً، أو يتجاهلهما بسهولة.ويفكر الانفعالي بذات الصيغة، وبواسطة ممارسة الحرية، يمكن أن يكتشف هويتها الحقيقية، ولكن لم يتم بعد إدراكها في صورتها الحقيقية أو الأصلية.

ان الإيمان يخلق شخصية خاصة تنوي الإصلاح عبر صورة أصلية مناسبة تنطبق على الحقيقة المغيرة للمظهر الخارجي. ان وجود هذا النوع ممزق، وكذلك الكلام بين سياق الروح والقلب هو في كفة والعالم المثالي في كفة أخرى، لكن الواقع الأساس بين الاثنين لم يظهر بعد.

إن النشاط يفقد حيويته، كتطورات الحياة الآن، والإذعان للحياة اصبح كبيرا وأخذت تتضاءل القدرة للمثاليات. وفي الوقت نفسه فان الحقيقة أصبحت معروفة اكثر، والأشياء أخذت تظهر كما هي، كالإنسان والمؤسسات والمواقع وحقيقة هوية الشخص ذاتها.

ان الاحباطات وخيبات الأمل في تزايد، فتصبح الحلول الوسط التي تكره الفرد على أن يهيئ لها مكانا مطمئنا و موثوقا لهذا النوع من المثالية اكثر فاكثر عدداً، وقد تطورت هناك أزمة جديدة، ولكن الثقة أصبحت ضعيفة تدريجيا، ليس من الصعوبة رؤية الجانب السلبي للأشياء، وإنما الصعوبة في إرباك الرغبة الشديدة مع الإنجاز البارع في النجاح.ويمكن للفرد أن يرى بوضوح كيف يصبح الوجود مبهما وثابتا، وفي هذا الضوء يمكن أن تكون المثالية العظيمة غير مؤثرة، والحركات عديمة الفائدة مقدر لها أن تبقى. إنّ معنى الواقعية يعارض كل التأثيرات، ولا تسلم التأثيرات إلى الأخير.

ان الخطر الذي يهدد عندها، هو اكتشاف الحقيقة، أي خطر التفكير بأنّ الحقيقة هي أقوى من المثالية، وبأن الظروف العقلية الراهنة؛ هي اصعب من الأفكار، وان الأنانية والتحقير والفضاضة هي اكثر حياة من جودة القلب.

ان الفرد الذي يتابع هدفا تجريبيا نبيلا؛ من المخزي أن يصبح تفكيره وهميا أو خياليا. فالفرد الذي سيصبح قريبا بالغا؛ يستحي عند أية بقايا من سنوات المراهقة، والفتاة التي ستصبح قريبا امرأة؛ تخجل مما هو باق من مظهرها الخارجي كفتاة صغيرة. ان الخطر المهدد بالنزوع إلى الشك؛ يتقوى مع الرغبة في إظهار النمو الحقيقي، وتلك هي البركة.

من الضروري تبيان ان الإيمان هو الأول في هذه المعاناة، فمثالية الإيمان قد حلت، وقد ظهر الإيمان كأنه طموح غريب إلى العالم، عاطفي ومبالغ فيه. ثم من المحتمل أن يأتي تغيير في طرق مختلفة، فالشاب يصير اكثر رزانة في أفكاره وأحاسيسه، وسيصير انتقاديا يقرأ علاقاته مع الأشخاص الآخرين، واكثر مثابرة في مهنته، واكثر استقراءً في عاداته الاجتماعية.. الخ.

ان الإيمان يمكن أن يعبد بطرق مختلفة. فالشخص يصل إلى بلوغ معين إذا حقق الإيمان إنجازاً رائعاً من خلال شخصية واسعة، إنّ الواقعية تقبل ما هو موجود بدون أي استسلام سابق، فالقوة هي في إيمان الفرد.

هذا النوع من الإيمان يجعل حريته متعلقة بالعالم كشيء موثوق به، فالإيمان يتجذر بعمق في أساسه الخاص، ومن المحتمل أن يعارض وضع الكينونة الذي لا يفترض التوافق معه، ولكن يخلص نفسه من المعارضة وخيبة الأمل المستمدتين اصلهما من الواقع، ويؤكد نفسه ضد

هذه الحقيقة. بيد ان أي شخص من المحتمل أن يجد قناعة عميقة وقاسية للاعتراف بان العالم لا يوافقه، وبأن الصراع موجود في كل مكان، وان حياة الإيمان نفسها في صراع ونضال دائمين يمكن أن نوضح هذا الشيء مرة أخرى في الطريقة الآتية: ان الإيمان ينمو في الرمزية، ولإعطاء معنى للرمزية يعني ان العقيدة تؤكد نفسها في وجه الواقع. ان الثقة والنظام والمحافظة تدخل جميعها في الإيمان، فالصراع متمسك بالحقيقة، وللمحافظة على وضع ما حتى عندما تتحقق نتيجة ناجحة يمكن بصعوبة أن نتنبأ بالمستقبل القريب والبعيد.

إن مثل هذا النوع من الإيمان هو لفرد يتمتع بالنضوج سواء أكان رجلاً أم امرأة، يعيش بإيمان ثابت بدون وهم أو خداع، فالتطور ربما يكون مستمراً إلى أقصى حد.

إذا استمر الإيمان في التطور، سوف يأتي وقت يعد المؤمن إيمانه مثل حقيقة ثابتة محكمة اكثر من الكل، انه بالتأكيد انتصار سيجعله يدافع عن نفسه ضد حقيقة العالم، وبالتالي الانتصار عليها مثل قول القديس يوحنا: " إيماننا انتصار على العالم " بمدى مواظبة الإنسان وتوسعه في الإيمان، وهما حقيقتان موضوعيتان، اتخذتا رمزا من النسبية، انه يفقد الوزن والكثافة والطاقة. ان القوة الجوهرية للمؤمن ليست هي السبب الرئيس هنا، ولا عطشه السرمدي، ولا تغير في قوة الحب، ولكن الإنسان الذي يصبح كبير السن يكون اكثر إدراكا للأبدية، انه يتحرك بصورة قليلة، والأصوات التي تأتي من خلفه تسمع من قبله بصورة افضل ان التهجم على السرمدية يسبب التغير في واقعية الزمن. ومن المحتمل ان المؤمن يُهدئ التوتر عن طريق تضمين نفسه واقعية إيمانه، انه لا يحتاج إلى أن ينشأ نفسه ضد ميل وقسوة الوجود.

ان الأشياء التي تجمع نفسها بسهولة ليست تحت تأثير السحر، ولكن من خلال الإنشقاقات والمعارضات التي تقسم العالم، هناك تبدأ بإظهار المعنى الأعظم، ويصبح الوجود شفافا ويتطور انسجام جديد، حيث الفرد كبير السن يصير وقورا وينتقل إلى النور الأبدي.

# الفصل الرابع

# الإيمان والعمل

أولاً: دعونا نجمع سير فكرنا البعيد جداً. من الواضح إن كان الشخص مؤمناً فهو يبدأ حياة جديدة. فالإيمان عند بعضهم لا يستنتج من الماضي أو من البواعث العقلية، أو الأفعال الإرادية، أو التأثيرات النفسية. على العكس، فالحياة الجديدة تبدأ معه، الحياة التي تأتي من الله مثلما يعي المؤمن نفسه...

لقد تكلمنا حول محتوى الإيمان، ورأينا كيف أن الوجود الجديد يخلق العلاقة الشخصية بين المؤمن والله، أي كيف تحدد بواسطة مقابلة الله نفسه، لكي يكون الإنسان مؤمنا يعني أن يكون في شركة مع الآب والابن والروح القدس... وأخيراً، درسنا فعل حياة الإيمان ورأينا أن له تأريخاً، ولكنْ مثلما هناك تواريخ عدة للإيمان كذلك هناك مؤمنون، لأنه (أي الإيمان) يتضمن كل شخصية الفرد، فإن الإيمان مثل التواريخ له مراحل مختلفة فيها تتغير تفاصيل الحياة، وفي ما بين الأثنين، هناك أوقات للأزمات، وكثير مما يقال عنه ( الشكوك) التي نقتنع بمقاومتها، لها في الحقيقة جانب إيجابي جدا، نحن نعاني خمول وشد وتشويش الحياة الطبيعية، التناقض بين ما هو معاش داخليا وتعبيره الخارجي، وعجز الفهم نفسه، ولإيجاد التوازن تحت مختلف الأحوال،فإن مناقشة بعض ( الشكوك) الخاصة بالواحد كما هي عند الآخرين يجب أن تكون اسهل ومثمرة أكثر إذا فهمنا معناها الحقيقي.

يجب علينا الآن أن نرّكز لفهم كيف أن الإيمان يدرك أكثر تماما، وأن القول الآتي للمسيح يجب أن يخدم دليلنا " أعمل ما أقول لك وسوف ترى أنك في الحقيقة "، هذه تعني بوضوح أنه لأجل مسك حقيقة الإيمان، علينا ألاّ ننظر إليها من الخارج ولكن ندخل فيها، ثم ستصبح ظاهرة لنا.

الإيمان هو شيء يمكن أن يفهم بواسطة الإيمان نفسه فقط، ولكن فهمنا بحاجة إلى مساعدة للوصول إلى اصل الإيمان، حيث يجب علينا أن نستعمل تخيلات مرسومة من خبرتنا، وأن نقارن الإيمان بالمعرفة الطبيعية. كاقتراح، تقول الجملة في التعليم المسيحي " إنه بواسطة الإيمان نؤكّد الاعتقاد بما أعلنه الله "، يبدو أنه يقترح سوية مع فعل التلميذ الذي يعتقد بما تم تعليمه بواسطة معلم مبجل هو أحسن من كل إجلال.

إن المقارنة خاطئة بوضوح أكثر، والإعلان يعلمنا الاعتبار لوجود الله وملكوته، نحن نؤمن بالرسالة ونثق بالحقيقة، ولكن المقارنة يجب أن تتضمن الخطر في أن نفهم بواسطة هذه الرسالة والحقيقة شيئاً يشبه معرفة العلوم الطبيعية.

طبقا لما قبله، هناك أشكال مختلفة للمسألة وللنباتات وللحيوانات وكل شكل يتواجد بنفسه وليس من المهم إن كنت أنا هناك أو لا، أو كيف يجب أن يكون تفاعلي، ولكن المعرفة تتضمن بعض التعاون والرؤية من خلال هذه الحقيقة ( الخارجية).

إن من أنا، أو ما هو نوع الحياة التي أقضي، أو لاشيء يدعوني لأتعامل مع الحياة ...، تعتبر مثل بعض الاعتبارات صعبة الإدراك والتعامل مع السؤال، ولذلك هي إلى حد ما غير

مأخوذة بالحسبان هنا، هذه هي أكثر أو اقل حالة للمعرفة في كل العلوم الطبيعية، لكن من الأمور حاسمة التعامل مع صورة الإيمان والتفكير بأنها يمكن أن تكون شيئاً مستقلاً يحترم، ماذا أكون أنا كشيء اختبرت خواصه ويمكن أن تكون قد رتبت أو صنفت طبقا للنظام، ذلك لن يكون الإيمان على أية حال، حتى ولا إذ الله أعطاني بعض المعلومات بنفسه، لذلك فان صورة الهدف ولا أبالية المعرفة يمكن أن تقودا إلى الشرود.

إذا كانت المقارنة مطلوبة، فدعونا نختار نوعا آخر من ( المعرفة) التي هي أكثر عمومية مع الإيمان: أي المعرفة التي املكها لنفسي، في هذه الحالة يكون موضوع المعرفة ليس شيئاً جاهزاً سابقا والذي أجد نفسي مراقبا له، لأنّ ( الموضوع) و (التابع) شيء واحد: و ما اعرفه بفصلها عن ضميري هو ذاتي في عملية العيش. إن لم أعشها بواسطة الخبرة، لا أقدر أن أعرفها لأنها عندئذ غير موجودة، من نقطة النظر هذه أيضاً العالم الخارجي والأشياء، والأشخاص،والأحداث التي تنال ميزة خاصة. قبل كل شيء لديها وجود موضوعي يمكن أن يتحقق علميا عندما نستخدم التعبير، ولكنها تحرز معناها فقط في وجود كما أجد نفسي في علاقة معهم.

إن عالم الأشياء والأحداث يحمل وجودي مزامناً تطوره، وتحول وجودي يعطي معناه ومركز الجذب. إذا لم أكن أنا أحيا فيه أو أشارك في أي معنى له، فالعالم لن يكون موجودا.

لذلك إذا أردت أن افهم ما الحقيقة في كل هذا – أعزو إلى الشيء الحقيقي أو حياة الحقيقة، ويجب أن أفعلها -، وأن أوجد كي أكون قادرا على معرفة نفسي أو معرفة هذا العالم كما لو كان ( عالمي أنا)، فيجب أن أدخل نفسي، وأتحمل المسؤولية على عاتقي، وأذهب بعيدا.

كلما أكون أكثر تصميما لفعل ذلك أكون أحيا بقوة، والتحديد الأكثر للذي ابحث عن معرفته، أسميا، نفسي في العالم الذي يحيطني. إنّ موضوع هذه المعرفة يتكون من الامتداد الذي أحيا*. هذه تعطينا صورة دقيقة أكثر لفهم الإيمان. أؤمن في الله الحي، الواحد والثالوث، وفي عمله الخلقي والخلاصي المقدس، واكتمال كل الأشياء. لكن لكي يكون هذا العمل الذي أؤمن به كاملا، يجب أن أشارك مع نفسي الوجود المسيحي. ان المسيحي نفسه يمثل جزءا من العقيدة. فمواضيع الإيمان ليست اتجاهات مكتوبة عاليا على الحائط باتجاهات دقيقة فقط ولكنها أفعال ( المجاهرة بالإيمان) للشخص الذي يؤمن ويحيا بها. إضافة إلى ذلك، فان الشخص ينبه بوضوح نحو رمز الإيمان الذي يبدأ مع كلمة ( أنا أؤمن)؟

إن المسيحي حاضر في العقيدة كشخص مدعوّ إلى الإيمان، ويجيب كشخص يعرف ويتوقع منه أن يحيا بحقيقته المسيحية التي تؤكد باعترافه بالإيمان. باختصار كشخص أساس لا (كمسيحي) يبارك. هو نفسه يمثل جزءاً متكاملا مع من يحيا معهم.

أخيراً، إن( موضوع) الإيمان المسيحي، هو فقط ماهيته (أي معناه الخاص) من خلال الرجوع إلى الشخص الذي يؤمن به فقط.

يقول الآباء اليونانيون لنا: إن الله في الفكر المسيحي هو ليس الله كما هو يتصور نفسه ويظهر لنفسه، ولكن الله كما هو في صلة معنا. الله الذي به نؤمن أو بدقة أكبر طبقا إلى العقيدة،

---

* لا نقترح بوضوح نظرية معرفة شخصية، بالطبع، ان عالم الأشياء موجود في ذاته، مستقلاً عني وعن حياتي. وما قلناه هنا لا يناسب شيئاً مع كانط (Kant)، ولكن العالم الذي أجد نفسي به، والذي يرى ويعاش بواسطتي، والذي يعطي معنى لوجودي – بمعنى آخر: عالمي الوجود– لا يتواجد بدوني، ويوجد اكثر جدية فيّ والحياة.

الله الذي به أؤمن، هو الذي خلقني، الله ليست له حاجة في إنّه موجود بدون أية موجودية ( واقعية) طبعا.

لكن الكائن متلازم عن الله الذي خلقني، ذلك لأنه مع كل الاعتبار الناشئ عن السيادة الأسمى للإله، عليّ أن اجزم- وهذه لا تتم مع وحدة الوجود – بأنني أشارك من خلال توسيع محدد في معنى كلمة ( الله)، منذ أن كان الله الخالق.

أنا اعرف كي أتكلم عن هالة (halo) الله أو عن قرينه – أو كل تعبير يجب أن نستعمله لشرح شيء يسمو فوق كل فكرة... انه مساو إلى عقيدة الثالوث المبارك. ان الأخير هو سر متسام تماماً. انه ينقل إلينا عمق التفكير الذي لا يمكن التعبير عنه بالكلام للحياة الإلهية التي ترسم حياتها الخاصة من نفسها وليست بحاجة إلى آخر – لأجل التأكيد ماذا يعني ( الآخر) أي الله وحتى الآن، عندما أتكلم عن الثالوث المبارك كمؤمن، لا أتكلم عنه كمجموعة نجوم من السماء، ولكن أفهم بأن المبدأ الأول والنهاية الأخيرة للوجود المسيحي والإيمان في هذا السر الأسمى يتضمنني أيضاً... والخلاص الذي فيه -أنا أؤمن - ليس الخلاص بالعموم، ذلك الذي بواسطته أنا خلصت. والقداسة التي بها أنا أؤمن ليست القداسة عموما ولكن تلك هي التي أنا أراهن.

كذلك الله مع كل شيء لا حاجة له بي، إنّه يحيا ويسود في ملء قداسته ووجوده الذي يعجز التحدث عنهما بدون العالم الموجود، أو الذي أنا فيه. هذه هي واحدة من العقائد التي شيدت كجدران لتصون فكرتنا عن الله من التلوث ومن إرباك وحدة الوجود ومن إرباك العالم. ولكن بما أن الله قضى منذ الأزل خلق العالم، وخلقني منذ أن دعاني إلى الرجوع إليه بواسطة الإيمان والمحبة، بما أنه شاء عالم أنا فيه مؤمن يمكن أن أكتمل بوجوده كمؤمن – سيكون العالم ذلك الذي أراده إليه عندما حقا أكون مؤمنا، وبالإيمان بالرجوع إلى الله. لذلك سيكون إيماني إلى حد ما متعلقا بي كاكتمال نهائي للعالم كما أراده الله. إن وجودي الإنساني الفقير بواسطة الحرية المقدسة للإرادة الإلهية متعلقة سرمديا به. أنا أتعرف عليه بواسطة فعل الإيمان كالواحد الذي يخلقني ويخلّصني ويقدّسني.

لذلك لا يعني أن أؤمن، أنه يواجهني شيء ثابت ونهائي، والذي أنا أفهمه. ولكن يعني أنا أختبر شخصيا الحقيقة المعاشة*. إن المؤمن المولود من اجل الوجود الجديد، يشكر نعمة الله، ويكون مدركاً لنفسه في قلب هذا الوجود، ومدركا لله كمن يمنح ويحفظ ويقود هذا الوجود نحو كماله. سيكون مدركاً للعالم كمن يصغي إلى هذا الوجود، من اجل أن يجد هناك -طبقاً لرسالة القديس بولس إلى رومية (الفصل 8)- خلاصه واكتماله. انه يستفيد بشدة إلى حد ان هذا الاكتمال يجتذب قريباً.

نحن نقدر أن نؤمن بالوجود فقط لأنه موجود، وهو موجود لأنه يدرك نفسه، ويدرك نفسه بقوة اكبر، فالفعالية الأوفر لحضوره هي إحساسه بالكيان والأوفر انها تفرض عليه عبر الإيمان.

---

* ربما هو شيء اعتراضي لكي نفهم الإيمان كحاسة موضوعية، تعلق الفصل الثاني بالحاضر؛ يجب أن يزود بالدحض الكافي لهذه التهمة. لكن لأجل تجنب أي غموض، أشير بوضوح إلى أنني ألح هنا فقط على صورة واحدة للإيمان. جانب واحد ثانوي محدد، لذلك هو محتوم. بالنسبة إلى تلك المسألة، يعني الإيمان أولاً ورأسا الإيمان بالله الحي الذي يعتمد على نفسه.

مرة أخرى، بواسطة طريق آخر، نصل إلى الخاصية الأصلية للإيمان كما يعبر عن نفسه في "دائرة " بواسطتها ترجع الفكرة إلى نفسه.عندما أقول: أؤمن بالله الذي هو قدوس وكلّي القدرة، وتام الجودة. تبقى هذه مجرد كلمة ليس إلاّ، إذا لم اعمل شيئاً بخصوصها. ومن اجل جعل نفسي واعية كلياً نحو الحقيقة الكامنة في هذه الجملة، يجب أن (أدركها)، وأن أضع نفسي في تماس مع الله، وابحث عنه، وافتح نفسي نحوه، لأنه يجب أن يجدني، وحينئذ في المواجهة التي هي ابتداءً من داخل نفسي؛ اصل إليه أخيراً، حيث يسمح لي أن ابصر قدرته ولطفه، ثم اعمل فقط في تلك الكلمات التي تتضمن "القوة واللطف"، ولها معناها الحقيقي، لأنها لا تعني القدرة أو اللطف عموماً، ولكن مع الاحترام لي ونحوي ونحو الآخرين.

خذ مثلاً آخر، العناية الإلهية التي حددت كحب الحكمة، بها يدير الله كل شيء، ليست حكمة لاعب الشطرنج التي بها يحرك القطع على اللوح، ما يديره الله هو حرية الناس التي وهبت مع النفوس.علاوة على ذلك، يعني ان كل مشروع الأشياء يكتسب معناه من حقيقة انه يذهب نحو الكمال ذاته. من خلال ذاتي وعملي.

عموماً لا يوجد شيء كالعناية، ولكن بعد أن أراد الله أن يدعوني إلى الوجود، وخلقني – فإنني أجد فقط العناية التي بها أجد نفسي واستنبطها، والتي لا أتخيل نفسي أنني مستقل عن تلك العناية، لأنه في تلك الحالة سأصنف نفسي خلف متناولها، اقدر فقط من الفكرة المناسبة للعناية والتي أتصورها مناسبة دائماً.

يقال هذا بواسطة التعاون مع التدبير الذاتي. فما زال هناك مثال: محبة الله لي.علينا للحظة، أن نترك جانباً معنى الكلمات المعبرة عن ما لا يمكن التعبير عنه، فمن أجل أن نكون على اطلاع مرة أخرى من نقطة النظر الجديدة؛ كيف اقدر أن أؤمن في هذه المحبة، إذا تركني الله غير مبال بي؟، أنا لا اقدر حقاً أن أؤمن بكل قدرتي بأن الله يحبني لولا أن أحبه بالرجوع إليه، أو بالثورة ضد محبته.

يجب عليّ أن احب الله، كي أكون قادراً على الإيمان، مع الإيمان الحي بأنني محبوب منه، هناك يجب في الأقل أن أكون بداية محبة، أو رغبة في تسلم نعمة كوني قادر على محبته. وأنا أؤمن حقاً بأنني قد أُحببت من قبل الله نحو ذلك الذي نفسي تحبه.

أنا اقدر أن أؤمن فقط إذاً أنا موجود كمسيحي ... وأنا موجود كمسيحي، ذلك لأن حياتي هي مسيحية ... ولكن هذه الحياة تشتمل على امتداد كبير للإيمان، لان الإيمان هو عيش وعي هذا الوجود ...

من هنا، كلما أنا أحيا بقوّة؛ يتعمق إيماني – وتغلق الدائرة مرة أخرى، وبالتالي كي أؤمن ليس نوعا من العمل الميكانيكي، ولكنّه عمل حيّ، انه ليس كاملاً، ولكنّه حالة مستمرة نحو التكون.ولا يوجد ضمان حوله، ولكنه يجب أن يكتمل باستمرار. انها تتطلب جهداً عظيماً، ولكن تستتر في هذا تماماً الحقيقة العظيمة.

# الفصل الخامس

# الإيمان والمحبة

ليس هدفنا تبسيط مناقشة الإيمان، أو استبعاد التوترات والصعوبات الطبيعية بسببه في سبيل الوصول إلى جواب قاطع ونهائي. إنّ السر الذي يكمن في أساس كل شيء حي في هذه الحالة هو سر عديم التأثر. أنه يتعلق بحياة تستمد مصدرها من أي مكان مقيد بالوجود الأرضي. لذلك علينا توقع مواجهة التشابك المربك لمختلف القوى والحوافز السيكولوجية (النفسية)..

على أية حال، أن حقيقة كون الخيوط تتشابك، والمستويات تتراكب، والمسببات والتأثيرات النافذة، كلها تدل على دورة الحياة الحقيقية، والظاهرة لنا كعلامة للحقيقة. فعندما نتعامل مع المشاكل الأساسية للوجود، من المهم أن نخترق المشكلة للحصول على أصلها ثم إلى اقتراح حل خارجي فحسب، فالرسالة تنجز عموما فقط أكثر مما أن تنجز عبر البساطة،وان أي واحد يملك إدراكا لما حوله يتحسس فورا هذا ويصبح عديم الثقة. وعلى العكس، إذا كانت المشكلة مربكة في كل اتساعها، سنكون حينئذ واعين، اننا أمسكنا الحقيقة، ونختبر الإحساس المحدد بالقناعة حتى لو لم نكن قادرين على الوصول إلى أي حل محدد في الحس الصارم لهذا المصطلح.

أخيراً هناك مشاكل – اكثر عمقا من الكل - مع الحفاظ على حالتنا المجردة كمؤمنين حجاج على الأرض نقدر فقط أن نرجو؛ لا أن نحل. فبعضنا على سبيل المثال له وجهة نظر. مثلاً عندما يقول نيومان أن الإيمان يعني:" القدرة على تحمل الشك". هذا الاعتقاد يقودنا إلى حد واحد من هذه السياقات التي فيها مبدأ وتأثير متشابكان، أقصد علاقة الإيمان والمحبة. هذا ليس سؤالاً عديم الجدوى.

في رسالته إلى القورنثيين ( الفصل 13)، يربط القديس بولس الإيمان والرجاء كفعلين أساسيين للحياة المسيحية. ولكن الرسول يوضح أن الأعظم من هذين الفعلين هي المحبة. حقا، كيف يقدر الإيمان والمحبة على أن يرتبطا بعضهما ببعض؟ هل الرسول لم يقل آيات عديدة قبل هذه، أي أن المحبة هي تلك التي (تؤمن بكل شيء، وترجو كل شيء).

ما هي إذاً العلاقة بين المحبة والإيمان؟. إن أول جواب يأتي إلى العقل هو : المحبة تمثل أنقى تأثير للإيمان. أن نؤمن؛ يعني أن نكون واعين بالحقيقة الحية لله، ولكن بما أن الله محبة، فالمؤمن يبدأ بالبحث بسهولة. إنّ وصية محبة الله ومحبة القريب كشيء واحد يقودنا إلى أن نكون مدركين بالعيش في سابقة عميقة قصوى نابعة من علاقتنا مع الله، أعني المحبة. يتحدث القديس بولس دائما حولها، ففي رسالته الاولى إلى القورنثيين (2:13) يقول: (.. وكان عندي الإيمان كله حتى أنقل الجبال، وليست عندي المحبة، فلست شيئاً).

القديس يوحنا يجمع كل شيء في المحبة، لذلك فان الدعوة الملحة إلى المحبة تصبح القانون الأول للحياة المسيحية. أما القديس يعقوب فانه لا يتردد في القول: بإن الإيمان الذي لا يوضح نفسه في الأعمال الصالحة يبقى ( ميتا). لذلك يوجد في الواقع نوع من الإيمان بدون محبة. ولكن ما يقوله الرسول بهذا الخصوص يرينا ماهية حالة الإفراط في كونك تؤمن بأن هناك إلهاً واحداً. أنت تفعل، الأشرار يؤمنون ويرتعشون أيضاً، ان الإيمان بدون محبة هو ممزوج

بالرعب، لذلك فالمحبة هي التأثير الأقوى للإيمان، وتنبثق منه مثل انبثاق الوردة من الجذع والجذور، ولكننا ما زلنا غير حاصلين عليها (إلاّ بالرجاء).

هناك فكرة واحدة تسيطر على العهد الجديد أكثر من أية فكرة أخرى، أعني ان ذلك الإيمان يتواجد من خلال المحبة. هل هذه ليست واضحة أيضاً ؟

إذا كان للمحبة التأثير الكبير في الإيمان، فان كونها فعالة أو مريحة، يجعل الإيمان بدوره مخنوق، إضافة إلى ذلك فان الربط يمتد عميقا، على المحبة أن تكون حاضرة في بداية الإيمان، فالإيمان الذي يتحدث عنه الكتاب المقدس يجب أن يملك جذوره في المحبة. ليست تلك نقطة الربط مع خبرتنا اليومية، فأحيانا الشخص يجب أن يقول للآخر مع العزم على تأكيد الحرص على ما يقول: ( أنا أؤمن بك)، نقصد أنه على الرغم من كل التقلبات كعدم الكفاية والتمثيل الخاطىء، فإنّنا واعون من قيمته كشخص. نحن نستند إلى الجرأة بإصرار، إن صديقنا سينجح في محاولاته، ولكن شيئاً من الرؤية الجريئة تستلزم موقف المحبة لأجل نظرة المحبة التي تخترق قلب الكيان فقط.

لا تزال هذه النظرة وكأنهّا ليست مجرد فعل ميكانيكي، فنحن لا ننظر إلى حقائق الوجود الإنساني، كما لو كنا ننظر إلى لوح منطرح في الطريق، وحتى في حالة اللوح، نحن نختبر بوضوح ما يمتّد هناك؟. هل ليس اعتيادياً أن يحدث أننا نفقد شيئاً، ثم نسأل أنفسنا بعد ذلك: كيف كان ذلك ممكنا؟. ألا تهرب منا هيأتنا العامة أحياناً، بينما نحن مجبرون بعمق بما هو ثانوي ومهم؟. هل ظاهرة الرؤية الرقيقة لا تعتمد على كل التفاعل المسبب، والذي يجعلها مفهومة هنا؛ وليست مفهومة هناك؟. ما الذي يزيد فتحة الحجاب هنا ويسدها هناك، ومن يسقط الضوء هنا، أو يدع الظل يسقط هناك؟. هل تنتمي الرؤية إلى الحياة؟ يرى الواحد شيئاً من الصراع الذي يلزم الاشتباك مع العالم أما في الدفاع، أو القهر؟ كما يقول سفر الأمثال "ما اعمله لا اعلمه يتركني لا حار ولا بارد". فعندما يرى الواحد من خلال شيء، انه يحترق، فلكي يعلم أن ذلك الشيء الموجود يجبرني على أخذه بالحسبان، يوقظ فيّ الخوف أو الرغبة، ويكرهني على العمل باختصار، عادة تثير التفاعل المضاد في الواحد الذي يرى ويعلم.

من هنا أحيانا، ليس من مصلحتنا أن نرى أشياء محددة لكي نترك بعضنا في الظلام، وبالمقابل نجيز للآخرين أن يصبحوا واضحين وجليين جدا. كلما نواجه بشخص من المستحيل لنا النظر إليه ( مع اللامبالاة) لرجل هو أما صديقنا؛ وإما خصمنا عادة. يخدم أو يضاد تصميمنا وهو صاحبنا، خادمنا أو سيدنا، من هنا كل المواهب تستيقظ حالا.

إن قلوبنا وكل وجودنا الشخصي يصبح معقداً. نقدر أن لا ننظر إلى رجل بدون تصور الأفكار العامة. فنحن نشاهد أنفسنا، مع ثقل وجودنا، متطفلين عبر ما نبحث عنه مثل بعض الأفكار التصورية القبلية.

حان الوقت الآن لتذكر الحقيقة التي تحب، بعيدا عن جعلنا عمياناً، فإنها وحدها قادرة على فتح عيوننا، الحب وحده يجعلنا قادرين على مشاهدة الآخر كما هو حقا.

هناك أنواع كثيرة من الحب: الحب الشهواني والرغبة في دمج أنفسنا مع الآخر، والتبجيل، حب الصداقة مع طلباته، والتعاون... الخ، ولكن لكي يكون الحب أصيلا وصادقا، يجب أن يحترم الشخص الآخر في كماله، ويميز فيه حقه في أن يكون نفسه، ويرغب في أن يصبح نفسه اكثر فاكثر.

بواسطة حدة الذهن هذه فإن الحب ينجح في مشاهدة الشخص الآخر كما هو حقيقة. نحن لسنا قادرين على أن نقول لأي شخص:(أنا أؤمن بك) بدون أن نختبر لأجله الحب المؤكد. لقد أدركنا الآن احسن مما تعني الكلمة، نحن نقدر على أن نؤمن بالله في طريقة حياة إذا أحببناه، إذا تملكنا في الأقل جزءاً من المحبة أو محبة مهيأة.

لكي نؤمن بالله يعني أن تكون لنا رؤية محددة له، ولكي نختبر حجماً ثابتاً بأنه هناك، وبأن العالم موجود ويتمركز حوله، كما قال القديس بولس في رسالته إلى أهل رومية: (فإن ما لا يرى من أمور الله، أي قدرته الأزلية وألوهيته، ظاهرة للعيان منذ خلق العالم) (روم 20:1).

فالله ينشئها من كل ما هو حولي، وما أنا عليه، ومن الأشياء التي تؤسس بنية وجودي. ولكن كم هي غامضة هذه المصطلحات! إن الطبيعة لا تقدر أن تعلن الله لنا بوضوح بطريقة إبرة البارومتر التي تشير إلى ضغط الهواء، لكن تقترحه كسرّ مثلما هو كتفسير.

إن العالم يتحدث عن الله، ولكن بطريقة غامضة. هو يتحدث من خلال إرباك وتشويش الخطيئة. فبالإنصات إلى كلماته، يستطيع الشخص أن يسمع محاكاة الحكمة الإلهية، أما الآخر فسوف يدرك فقط الاختلاف البارد، أو الإرادة المريضة والمجربة، لأن العالم يعلن الله ولكنه يخفيه في ذات الوقت. الله هو بالطبع خالقه وصوّر شكله، ولكنه أيضاً الآخر، المجهول المخفي بواسطة الشرير، إضافة إلى "الأعمال" المستفهمة، هي أشخاص، وعالم الأشخاص، أو تاريخ الأشخاص عندما يتضمنني أنا – بما يبدو لي، أو يحصل فيّ – كم هو على نحو مشكوك فيه كل هذا الكلام الإلهي.

هل الله موجود؟. هذا سؤال حيوي بالنسبة لي بشكل مطلق أكثر من أن يكون هذا أو ذلك الشخص موجود. إنّ النظرة التي أمتلكها عن الله تعتمد على ما يمليه قلبي، وموهبتي لأجل الحفظ الذاتي، وتفاعل رغباتي ومقاومتي وخوفي إطلاقا أكثر مما إذا كان سؤال حول وجود الأشخاص.

إن إرباك وجودي الإنساني يربك بحثي عن الله في العالم، وإذا العالم نفسه يتكلم بغموض عنه – فكيف تكون قدرة الإرادة الرافضة بواسطة الشرير إلى مدى غير مقرر لإخفاء وتشويه وخداع صورة الله نفسه. من هنا قيل: " ان أنقياء القلب.. سوف يعاينون الله " هذه الحقيقة هي ليست في العالم الآتي فقط، بل هنا والآن.

إذا لم أتهيأ لأن أحبّ الله، لا أقدر أن " أراه"، فصورته ستأتي غامضة أكثر فأكثر وستختفي خلف بقية الأشياء، وتنتهي في اللاشيء. عدا ذلك ... من نقطة الرؤية الإنسانية فأولا وقبل كل شيء علينا أن نعترف بوجود كيان أعظم من نفسي والذي يطلب ذبيحة.

كوني أحب، يعني أن أتهيأ للالتقاء بالأعظم سموّاً، لا لتجنّب الصدام معه، ولكن للبحث في سبيل إدراك أنه فقط في عطية هذا الصدَام، يتطلب ذلك، إذا كنت قادرا على أن أجد نفسي حقاً. فهذا الموقف يوقظ فيَّ كل الحديث عن الله، ويجعلني قادرا على رؤيته.

لكن الله أعلن نفسه في طريق مضبوط وخاص في يسوع المسيح لذلك " الذي يراني، يرى الآب". في المسيح جاء النور إلى العالم، أعني أن هذا العالم خلق بواسطة الـ " كلمة" الذي هو نفسه كالمسيح، ولذلك يقول الرسول يوحنا في إنجيله:" رأينا مجده، مجد المولود الوحيد للأب، المملوء نعمة وحقاً ". لأن الله تحدث ورسله أوصلوا كلمته إلينا لنبني عقولنا، لنوجّه ونقوّي

قلوبنا.لذلك وبدون أي كدر بسبب الشك، ومع الاعتبار إلى الابن، قال:" لا أحد يقدر أن يأتي إليّ إذا لم يجذبه الآب الذي أرسلني ". وعن النور كتب:إن " الظلام لم يدركه ". أما عن المسيح، فإنّنا نعرف عن الأشخاص الذين لم يقبلوه، انهم قسوا قلوبهم ضده.

أخيراً قال: ان كلمة الله لا تفهم بدون القلب الذي لُمس، والعقل الذي فُتح. فالشرير مازال قادراً بالتأكيد على شقه (تمزيقه) من القلب بالرغم من الجهد المسنود. إن كشف الله في المسيح، كلمة الله، لأجل أن يكون مشاهداً بواسطة الشخص؛ يتطلب استعداداً حيا ونعمة ومحبة. فكثيرون يمكن أن يتحدثوا عن العناية الإلهية، وشخص المسيح أو الكنيسة، ولكن أساساً سوف ينحني وهو يغلي نحو ذات الأشياء، عدا حضور المحبة التي تمكنني من أن أرى الشيء حقاً. يجب أن تكون هناك في الأقل بداية المحبة، وعليّ أن أتهيأ للمحبة في سبيل أن أؤمن، ولكن كيف اقدر (أن أحب) قبل الإيمان؟ جئنا الآن إلى السؤال* الحاسم. وهذا الوضع يمكن أن يوجد حتى قبل أن يصبح الموضوع مرئيا، انها حالة البحث عن المحبة، البحث ما زال غامضا، ولكن الرغبة في التركيز على بعض الأوجه.

إن البحث والإدراك يفتحان القلب ويضعانه في الحركة، وفي المحبة، أما العقل فانه يستقطب بمبدأ المحبة، ويمكن أن يوجّه نفسه عادة _ حتى قبل أن يكتشف الحقيقة – نحو ذلك الذي هو مصدره وموضوعه. يقدر القلب أن يكون قريبا من الله، بينما العقل ما زال بعيدا عنه. ان حركة المحبة هذه، تهيئ الشخص للعطية الكلية التي هي الإيمان. انه يفتح قلبه ويصل إلى الحقيقة، ويكسر قيد القدرة الذاتية الخاصة ويجلبها حول " من يحفظ نفسه سوف يخسرها ". كيف تحب الأم طفلها؟. كيف تحوم المحبة حوله؟. انه ليس في الوجود حتى الآن، لكن الذي سيتكون يوما ما في دمها هو المحبوب أولاً وقبل كل شيء بواسطة الأم من خلال نزعتها إلى تحمله، ثم هي تشعر في نفسها بشيء حي، وحبها ينمو طرديا مع النمو الواضح لهذا الجسم من خاصتها. من خلال هذه المحبة، تصبح واعية بذلك، وتؤمن بإدراك هدف وجود هذا الطفل، وعندما تجلبه إلى العالم وتنظر إليه وهو بين ذراعيها؛ تكون عيناها قادرتين على اكبر عمق للمعرفة، لان قلبها اجتاز من خلال قلب مدرسة الصبر والحب.

ان الله مستقل وحر، انه "هو ذاته" جوهري، ولكنه يفترض بالنسبة لي الشكل والظهور. انه بالنسبة لي ما أنا عليه. فهو يطلب بان يستقبل من قبل فكري وحياتي لكي يصير " الهي ". لكي أؤمن كليا؛ ألا يعني هذا إن الله صار الهي؟ انه هو " ولد فيَّ " كما يقول سيد الحياة الروحية؟. ولكن هذا السر يأخذ محله في المحبة فقط – وأول فعل للمحبة يتضمن إعطاء الذات إلى الله في نور هذا السر.

إن موقف المحبة يفتح العيون استنادا إلى الإيمان، ومع الزمن تصير قوة هذه المحبة اكبر وتنمو وتكسب في الوضوح. يجب علينا أن نقول، بان الإيمان ينشأ من المحبة، أو المحبة تنشأ من الإيمان على حد سواء. وأساساً فان الاثنين هما الشيء نفسه، أي ظهور الله الحي والممتلئ نعمة في الشخص الحي.

---

* يناقشه القديس اوغسطينوس في (الاعترافات )، عندما يشرح خبراته العميقة، ولمناقشة لأكثر المعطيات الحديثة نفسها انظر **F.Klein,Une experience religieuse,Madeleine Semer Convertie et mystique ( (Paris1923))**

من هنا لا نقدر أن نعمل شيئا لتلقين نمو إيماننا اكثر من أن نفتح قلبنا إلى المحبة، لكي نصير أسخياء إلى درجة كافية مع الرغبة تجاه وجود الكيان الذي يتجاوزنا، والى تمني المواجهة مع المتعالي من اجل بذل ذواتنا له.

كي نختار الوضوح؛ فإن الموقف المبهج للذي لا يخاف لأجل نفسه، وللذي يعي ان عطاء الشخص لذاته هو، يستطيع أن يكون أقوى واكثر خلقة من الاحتواء الذاتي.

لكن كل هذه كثيرا ما تبقى مسائلَ أرضية، يجب علينا أن نفتح قلوبنا لسرّ المحبة الذي يأتي من الله، والمعطى لنا بواسطته في الذين تكون هذه المحبة كـ فضيلة لاهوتية، هي طاقة إلهية في الذين فيهم يعلن الله نفسه بنفسه، الآب للابن، والابن للآب، والاثنان في الروح القدس. انه سر فيه تتيح لنا النعمة للمشاركة.

الله " معطى " لنا في نعمة ومحبة. انه بواسطة هذا السر يحيا الإيمان، علينا أن نتمسك في هذا السر إذا رغبنا في تعلم معرفة الإيمان الحي. علينا أن نهرب من خطر كوننا غامضين ولا مبالين إذاً.

# الفصل السادس

# الإيمان والرجاء

لقد بحثنا في مناقشتنا حتى الآن، العلاقة الجوهرية للحياة المسيحية، وعلى وجه الخصوص العلاقات بين الإيمان والمحبة. ومن هنا يسلط ضوء جديد على طبيعة الإيمان بحد ذاته. رأينا بأن الإيمان يكتمل بالمحبة: أي ان المحبة أساسية بالنسبة له كما يعلن القديس يعقوب ان إيمانا ليس بحب يعد ميتا. غير أنّ النظرة الواضحة التي بواسطتها يدرك الإيمان حقيقة ومعنى الله تقتضي حركة في الحب. المحبة والإيمان يعزز أحدهما الآخر، وهذه العلاقة المتبادلة تمكننا من رؤية الجذر المشترك للحياة المسيحية.

الآن ينبغي لنا مواصلة تحليلنا هذه العلاقات الثلاث بشكل اعمق، ونسأل أنفسنا:كيف يتعلق الإيمان بالرجاء؟، وماذا يعني كلُ منهما للآخر؟ كما هو الحال بالنسبة لسائر الأفكار المسيحية، علينا أولاً أن نحرر نظرتنا المتمثلة في الفضيلة المسيحية الأولية من حجم الأشياء المترابطة التي تحيط بها ونحيي وفرتها وغناها الأصلي.

بوسعنا فقط أن نستوعب ما هو الرجاء المسيحي حقيقة، عندما نأخذ بنظر الاعتبار تمزق أو عدم كمال الطبيعة الإنسانية. تمر الأيام والليالي من دون أي معنى جلي، وما من شيء يدوم: لا العمل ولا الناس. ولا الجمعيات، إذ يتغير كل شيء ويتلاشى. اننا نبحث عن معنى لوجودنا سدى، حيث ندرك ما يجب أن يكون، بيد اننا لا نحققه.فالقدر والضرورة وحتى الفرصة المنافية للعقل غالبا ما تجردنا من أعمالنا وممتلكاتنا ومما نحب، فيقهرنا سوء الحظ ويقمعنا خداع النفس.نصاب بالذعر، ولا يمكننا أن نتحمل أنفسنا، ونرغب في الهروب من كل الحقارة والقباحة والشر الذي يميزنا، إذ نحول وجهنا من الصورة الأخرى التي من خلالها علينا أن ندرك أنفسنا، ونلقي أنفسنا على أي بديل متاح، كأن يكون امتلاك شيء ما أو قيمة ما أو إصلاح، أو تحسن في العالم، غير اننا، برغم ذلك، نشعر في الوقت ذاته بمدى خداعنا لأنفسنا.

هل طبيعتنا الإنسانية هذه -وليست شيئا مستحيلا تماما-، تمزقها المتناقضات وتتخللها المعاناة، ويقدر لها أن تموت، وهي غير قادرة على السيطرة على نفسها؟ ان الإنسان على أية حال، يعي دائما بان هذا المصير ينبغي الاّ يكون.لقد حاول آلاف المرات أن يحرر نفسه، إلا انه لم ينجح قط، حتى إذا نجح بالفرار من جانب واحد، يقع وبشكل اعمق في شرك جانب آخر، حيث ان القيد الفولاذي الذي يقيده متين لا يمكن فكه. ولكن بالرغم من الإحباط واليأس، فالضمير دائما موجود في أن يكون افضل مما هو عليه. بالطبع، ان تغييرا كهذا لا يمكن أن يحدثه العالم بحد ذاته بل مما هو أقصى، أي من شيء يدعى " الله ".يا ترى، كيف توصل الناس لمعرفة ذلك؟.

ان الإيمان يخبرنا عن الوعد الأصلي المعطى للبشر بعد أن وقعوا في الخطيئة، والذي يحيا في قلوب البشر على نحو يتعذر إزالته. فضلا على ذلك، نعرف من طبيعة العالم والأسلوب الذي ينتظم فيه بأن هناك جودة إلهية – برغم كل التفاهات وعدم الاكتراث والقسوة والضغينة التي تسود في العالم -، انه لأمر صعب أن نقول تماما كيف يتم التوصل إلى هذا الانطباع، وكيف يصبح واضحا، لكنه يكون هكذا فعلا.

بالرغم من وعي الإنسان بحالته في الاستسلام، تكون في قلبه حقيقة أكيدة هي ان الفداء سيأتي، لا يعد ذلك رجاء مسيحيا حتى الآن، بل هو استعداد له. لقد حدث شيء هائل من هذه النقطة: جاء المسيح إلى العالم ليكشف لنا عن نظرة الله إلينا. لم يحتقر العالم ولم يكرهه ولم يكن يتلاعب به أبدا، ولم ينظر إليه من الأعالي في معزل مهيب.

عندما نحب شيئا، يعني أن نشاركه الحياة في الأخذ والعطاء وفق هذا المعيار، وينبغي لنا أن نقيس جديّة فكرة كون الله يحبنا، إذ انه لا يشعر بنزعة إلى عمل الخير لنا من مسافة بعيدة فحسب، غير انه يحبنا بما تحمله الكلمة من معنى قوي. لقد انكشف ذلك أمامنا بواسطة المسيح، ويظهر ذلك من كلماته ومن موقفه الشامل إزاء البشر اخوته. لقد كان الله على استعداد لان يتخطى أقصى الحدود في حبه لنا، كما يتجلى ذلك في موت المسيح.

بالمسيح يتجلى شيء من ذلك العالم (العلوي) في العالم الذي نعيشه. فالله الذي صار إنسانا، ينشأ بيننا، ويقول لكل واحد منا ولي أيضاً "*أتمنّى أن أفديك من حالتك في الاستسلام، أتمنّى أن أكون خلاصك*". أن نسمع هذه الكلمات وان نؤمن بإمكانية هذا الوعد ونثق به، برغم ان كل شيء في داخلنا ومن حولنا يعارض ذلك الشيء -هذا هو الرجاء المسيحي.

لكن الأمر ليس سهلا، فالله بالطبع كلي القدرة، وحالما ندرك ونعترف بان الله يحبنا، علينا أن نعتقد في الوقت ذاته، ان كل شيء ممكن في محبته، إلا أنّنا لا يجب أن نستهين بالعمل الإلهي للفداء، فما يحدث هناك هو بمنتهى الأهمية، إذ يخبرنا الوحي بان الإنسان قد تعرض للضياع ولم يكن له مجال للخلاص، هكذا كان الأمر أمام الله ولكن الفداء لا يعني ان الله يزيل العقبة بمجرد أن يلوح بيده، أو أن يجعل الأمر ممكنا بنوع من براعة اليد التي كان يستحيل على الإنسان القيام بها.

على العكس تماما، لقد اصبح إنسانا، إذ دخل إلى متاهات من الاستحالة، وان جاز التعبير قام بتفكيكها من الداخل، غير ان الإنسان يستمر في أن يكون عقبة ويقاوم مشيئة الله في الفداء. ان الأسلوب الذي ادخل فيه الفادي يبرهن هذا الأمر بوضوح تام. لقد حدث كل شيء كما يصفه القديس يوحنا: *قد أتى النور السماوي القادر على أن ينير كل شيء، لكن الظلام لم يسمح للنور بان يتغلغل*. لقد كانت قسوة القلوب التائهة أو التي تتقهقر في داخلها معارضة لقوة محبته الفدائية، ولم تكن تسمح لها بالدخول. كانت المقاومة في غاية العناد إلى الحد الذي لم يكن فيه الفداء ممكنا إلاّ بموت المسيح فقط. من الناحية الإنسانية، بقيت مشيئة المسيح الفدائية غير فعالة طالما عاش، إذ أخفتها قسوة القلوب. مع ذلك، ان هذا الإخفاق بعينه هو الفداء، حيث تصبح علامة الهزيمة علامة القيامة، لكن محبة المخلص ونوره وحياته لابد لها من أن تعاني الظلمة، إذ انه ما وراء الموت وبعد القيامة فقط يكون الانتصار أكيداً، منيرا الظلام في العالم.

هل عسانا أن ندرك المعنى الحقيقي لموت المسيح؟ أي انه يحب أن يموت كي يدخل إلى مجده؟ وهل نرى كيف كان الإنسان تائها في عين الله؟ لقد كانت حالته يائسة، يتضح ذلك من خلال الحوار مع الشاب الغني عندما يقول الرب لاتباعه:يستحيل على أولئك الذين يبقون متعلقين بممتلكاتهم الأرضية أن يدخلوا ملكوت السماء، ومن ثم يسأله التلاميذ من ذا الذي يستطيع أن يخلص، فينظر إليهم يسوع قائلا:" ما هو غير مستطاع عند الناس، مستطاع عند الله "، يسوع " نظر إليهم "أي انه ينظر إليهم كطبيب عندما يسأله رجل يحتضر في ما إذا كان علاجه ممكنا، ينظر إليه ببساطة وهو على علم بعجز مهارته... ولكن في هذه الحالة علينا أن نكون في علاقة مع من هو اكثر من طبيب.

ان الرجاء المسيحي يعتمد على محبة الله لنا وقوته الكلية، أي قدرته، فكل شيء مستطاع لمحبة تعرف بأنّ هذا الأمر: " *هذا غير مستطاع لدى الناس* " نظرا لإدعاءاتهم بشأن العالم والوجود. يشعر الرجاء المسيحي بأنّ كل شيء يأتي من العالم هو معاد له (أي للمسيحي)، فمحبة الله هي المفضلة فقط في ضمان الإيمان الذي منه يتحقق الرجاء بثقة. ولكن برغم ذلك،فإن الرجاء المسيحي هو ضد كل أمل أساساً، ولهذا السبب ليس له أساس في العالم ولكن في الإيمان، إذ يرى في الحال ما هي ادعاءات العالم ومع ذلك يثبت نفسه بالرغم منها. لا يمكن للرجاء أن يدحضه العالم لأنّ له صفة مطلقة عنه، فهو "*ينتصر على العالم*" شأنه شأن الإيمان.

خذ، على سبيل المثال، جدارا صخريا لمنحدر، تحرقه الشمس صيفا ويجمده البرد شتاء، وتجتاحه الرياح الهوجاء التي تجرف كل شيء. ولكن لو حدث ان تجذّرت حبة أو بذرة في صدع عميق من الأرض، ونمت نبتة صغيرة،فكم نندهش عندما نرى هذه الحياة الهشة تنمو هناك، حيث ان جميع العناصر عدوانية للغاية؛ أليس هذا ما يحدث معنا؟ ففي لحظة عماذنا، تقع في نفوسنا بذرة من العالم الخارجي وتنمو هناك، بيد ان العالم لا يعتني بها، فهو بمثابة الصخرة والشمس الحارقة والبرد القارس والرياح المهدمة إزاء هذه البذرة العالم كما يبدو_ الطبيعة والتاريخ والبلد والمجتمع والعلاقات الإنسانية _ بعيدا كل البعد عن دعم نمو هذه الحياة السماوية.

وعلى العكس تماما، قد يؤدي كل شيء بالمرء إلى أن يظن بأن هذه البذرة ستجف وستتجمد إلى الموت، وستنجرف بعيدا، لكن الرجاء هو اليقين بان هذه الحياة الهشة "ستنتصر على العالم" ، لأنها تأتي من ذلك الذي "انتصر على العالم ." ولكن لماذا نتحدث عن العالم الخارجي؟ " العالم قبل كل شيء يعني نحن، أنفسنا: عواطفنا، تماهلنا، وارتباكنا الداخلي، ذلك كله اكثر ضررا من الحر والبرد والعاصفة، إذ يعرض وجود هذه الحياة الهشة للخطر. لننظر، على سبيل المثال، إلى يوم من أيامنا ونرى ما يحدث، ما نتجاهل القيام به وكذلك الأحداث والأعمال واللامبالاة في حياتنا. إلى أي حد يا ترى تسهم جميع هذه الأمور في الحفاظ على هذه الحياة الإلهية ودعمها وتنميتها وتعزيزها، لكن الرجاء يعني الوعي بأن هذه الحياة المهددة بشكل عميق ستثابر وتنمو بالرغم من الأخطار الآتية من الخارج، وفوق كل شيء برغم تلك المخاطر الناشئة من الداخل. فالرجاء، هو دائما ضد كل أمل.

عندما نلتفت في نهاية كل يوم لما قمنا به من عمل، نشعر بعجزنا، على أية حال، نبقى واثقين بالرغم من هذا كله ولو لمدة من الزمان قائلين لأنفسنا: ستجري الأمور بشكل افضل في المرة القادمة، ومن ثم ينتابنا الشك ونسأل أنفسنا : أين الفداء الذي يتحدث عنه الإيمان؟ يقال أن النعمة فيَّ وسيولد إنسان جديد.

# الفصل السابع

# الأشكال المختلفة للإيمان

لقد حاولنا أن نتوصل للإيمان من آراء مختلفة. رأينا كيف ينشأ الإيمان وما هو محتواه؟ وكيف ان هذا المحتوى يحدد طبيعته، والأزمات التي يعانيها الإيمان في مسيرة تطوره.وأخيراً، رأينا ما علاقة الإيمان من جهة والعمل والمحبة والرجاء من جهة أخرى. لاحظنا أيضاً ان الإيمان يمثل وحدة تامة حية. كلما تفحصناه بالتفصيل، فإنّنا نقوم بذلك بما يتعلق بهذه الوحدة،لذلك فان كل مشكلة تكشف عن حقيقة الإيمان بوضوح.

والآن علينا أن نسأل أنفسنا السؤال التالي :هل نؤمن دائما بذات الطريقة؟ كي نكون على يقين بأن الإيمان هو دائم. ولكن هل يكشف النقاب عن نفسه دائما بذات الطريقة في كل مكان؟ أم ان هناك أشكالا شتىّ للإنسان المؤمن، برغم وجود وحدة أساسية؟

نحن لا نطرح السؤال من أجل أن نكتشف بان هناك معتقدات دينية مختلفة،أي ان هناك أشكالا مختلفة للدين.إجابة على ذلك، توجد بالطبع معتقدات مختلفة، الأمر الذي يثير مشكلة أخرى: ما العلاقة بين هذه الأديان والإيمان المسيحي؟ إلاّ ان هذا يتجاوز تماما حدود كتابنا.ان الاختلاف الذي يشغل ذهننا هو ذلك الموجود ضمن الإيمان المسيحي نفسه. وهنا نسأل أنفسنا حقا، في ما إذا كان الإيمان وحياً فريداً من الله بواسطة المسيح، الإيمان الذي يحيا في الكنيسة الواحدة، الدليل والمفسر الوحيد للوحي الذي يظهر بأشكال مختلفة.

ان المشكلة ذات أهمية واضحة تستحق بحد ذاتها جوابا، ولكن علينا أن نوضح أفكارنا من وجهة نظر المؤمن المسيحي، فعند وجود مجموعة من أشكال الإيمان، ستتعرض حياة الإيمان – لفرد معين – للخطر وذلك في ان تتأثر بشكل أو بآخر، بدلا من أن تنمو بثبات حسب النمط الخاص بها. فضلا على ذلك، نحن لنا الحق، بل من واجبنا أن نطور نمطنا الخاص في الإيمان ونتمسك به، ويكفي مجرد التأمل في الناس اليوم وأولئك الناس في الأمس، لندرك أشكال الإيمان المختلفة، العديدة، الموجودة في الإيمان الواحد نفسه.

لنأخذ، على سبيل المثال، إنساناً وجوده الكامل متأصل في قلبه :أن يفكر،أو يحسب، أو يتصرف، فدافعه الأساس ينبع من قلبه.ان قلبه غال سواء أكان ذلك في بذل ذاته أم في الأخذ بالمقابل، يفكر مليا في قيمة الأشياء وثمن الوجود ويتمنى أن يمتلكهما، كما يتمنى أن يحب.

ان مسألة ما هي في الأساس صواب أو حقيقة أو واقع يفسرها لتعني في ما إذا كان هناك مجال للحب الأعظم؟ هذا النوع من الإنسان يبحث عن شيء جدير بحبه يقدمه كليا. عوضا عن ذلك، طالما ان الحب ليس شيئاً جاهزا يبحث عن دافع ما، بل انه ينمو بالاحتكاك مع هدفه ومن خلاله، فان رجلا كهذا يسعى إلى معرفة كيف يمكن لحبه أن يبلغ حالته القصوى. ففي حالته، أن يحظى بالإيمان يعني أن يكون قد أدرك ان العالم لا يمكنه أن يرضيه أبدا، وبان المجال الضروري للتحرك في قلبه والهدف الجوهري للنمو التام لحبه يكمن في المسيح.

إنّ لهذا الشكل من الإيمان ميزة فريدة، فبالنسبة له يبدو العديد من الأمور ممكناً بينما يعدها الآخرون صعبة أو مستحيلة. عندما تظهر مشاكل لا حل لها على ما يبدو جليا كالمشاكل

التالية: كيف خلق الله الأبدي الزمان والمتناهي؟،وكيف أحبّ الخليقة الإنسانية الزائلة الراسخة في هذه الذرة من التراب، التي هي الأرض؟،وكيف اظهر في هذه الأخيرة (أي الأرض) تاريخا مقدساً؟،وكيف كان ممكنا لله أن يصبح إنسانا؟،وكيف صار بوسعه البقاء إلى الأبد ومع ذلك ضحىّ بنفسه من أجل الإنسان؟ - آنذاك يحظى إيمان كهذا بجواب جاهز مليء بالقداسة مفاده ان "*الله يعمل هذه الأمور*". هذا هو الجواب الجوهري بالنسبة لهذا النوع من الإيمان.

من جهة أخرى يواجه هذا النوع صعوبات نادرا ما تصادف الأنواع الأخرى أياً منها.فعلى سبيل المثال، يسأل نفسه كيف بالإمكان الاّ يكون كل شيء واحدا؟. وكل الاختلافات لا يستوعبها هذا الحب الواحد،وان الانفصال بأكمله لا يفقد في الاكتمال الواحد؟، وهناك أمثلة عديدة من اللاعدالة والألم والحياة المضطهدة، والكثير من الخطيئة والخشونة والقسوة؟.

في هذا الملاذ الأخير، تكون معايير هذا النوع من الإيمان كالآتي: الشيء الممكن هو ذلك الذي يحققه الحب، والشيء الصائب هو ما يمكن الإيمان به من جانب الحب، والشيء الجيد هو الذي يمكن الحب من أن يوجد وينمو.

تتخذ هذه المعايير دلالة خاصة من حقيقة كون من يحب هو الله، وان الحب يمتلك شهامته المقدسة وقدرته اللامتناهية. ولهذا الأسلوب ينفتح أفق، ويحدث تحولا في كل تقديراتنا للقيم بخصوص العالم والتي تعد جوهرية بالنسبة للحياة المسيحية.

هناك شكل آخر للإيمان في ذلك الرجل الذي تستند شخصيته بشكل تام إلى البحث عن الحقيقة. فبالنسبة له يظهر السؤال بالصيغة التالية: ما هي الأشياء؟،وما الوجود؟، ومن أين يأتي؟، وما شكله؟، أو نمطه؟. وما غرضه؟.فالحقيقة بالنسبة له ليست مجرد مسألة عقل، لكنها تلك التي تميز الوجود، والضوء الذي من غيره يجول العقل بلا غاية، وكذلك الهواء الذي يتنفسه، والمادة التي تغذيه.

يسعى العقل إلى الحقيقة لأنه يعيش بها فقط. ان وجود الأشياء التي لا يمكن تفسيرها يسبب الكآبة له، كما ان غموض الأسباب والنتائج يضايقه ويزعجه. لا يمكن لشخص كهذا أن يحيا حقا إلاّ بعد أن يكون قد فهم المغزى الأساس للوجود وحتمية حركة الوجود. ان " الحقيقة " التي يبحث عنها ليست مجرد دقة القانون العام التي يمكن إحرازها دائما، ولكنها الإنجاز المادي الذي يوافق بحثه والتفسير الأساس والحقيقة المطلقة للنظام. حالما يدرك ان هذا الضوء المهيب وهذا الإنجاز النهائي وهذا السلام الذي يرقد به العقل بطمأنينة لا يمكن البلوغ إليه في العالم ذاته، ويدرك أيضاً انه لابد من أن يكون اصله من الوحي. ان سبب ذلك ليس لان حقيقة العالم محدودة للغاية، بل لان القلب يتطلب نوعا آخر من الحقيقة المقدسة للإله الحي. ولكن ذلك لا يمكن أن ينشأ من أي عالم، حيث انه أسرع واعمق وأنقى من عالمنا بآلاف المرات.

الإيمان هو أن نعرف ذلك ونقبل به. ولكي يؤمن شخص كهذا، فهذا يعني أنه توغل في عالم الحقيقة المطلقة والتي تأتي من لدن الله بواسطة المسيح، كما يعني أن يكون قد اصبح على اتصال مباشر بالحقيقة الأسمى في جوهرها المقدس وأسبابها ونتاجها، وان يعي ان الله هو النور.

ان هذا الإيمان يسلك سلوكا مختلفا عن ذلك الذي ذكرناه منذ لحظات، والذي تأتي أزماته من مصادر أخرى:فمثلا عندما تبدو تقديرات معينة مستمدة من تحريات في حالة مدنسة ومناقضة للوحي، أو عندما تنافي مسألة العقيدة العقل، وتحظى بنوع مختلف من السلام الناشئ عن النور

المقدس الذي ينبع من سر الإيمان،الذي هو وحده يمنح كل كائن أو شيء ارضي قائم مصيره الحقيقي.

هناك رجال آخرون تلهمهم المثالية الأخلاقية أو على نحو أدق، الرغبة في عمل الخير، إذ يتمنون أن يتغلبوا على الشر، وان يترفعوا على نقصهم وعلى كل ما هو غير ناضج، أو قبيح، أو بذيء في مواطن طبيعتهم. يتمنون أن يصبحوا صادقين ونبلاء. فهم يجوعون ويعطشون للعدالة، وقد تكون لهم الرغبة ثانية في أن يصبحوا أناسا جدد، ولأجل هذا يدركون تطلعاتهم الحقيقية أساساً - ولكن ليس وعيا منهم دائما، وأحيانا بأساليب غريبة جدا - تحفزهم الرغبة على أن يغيروا أنفسهم، ويجددوها، وان ينتصروا ويتحولوا.

يواجه هذا الحافز قيودا من الجوانب كافة، إذ يعارض المقاومة والعقبات بجميع الأنواع الخارجية أو الداخلية معا، ويكتشف حدوده الخاصة - حتى يتضح ان صورة الحياة الصحيحة التي يطمح إليها، وإمكانية التجدد والقوة الخلاقة المحولة لابد من أن تأتي من مكان آخر. ينكشف الخير الحقيقي والجوهري أمامهم في المسيح، الذي هو الوحي المتحسس لإرادة الله، والذي بنعمة الله يجعل ما هو غير مستطاع عند الناس مستطاعا. من هذا اللقاء مع المسيح يولد الإيمان. وكي تكون مؤمنا، يعني أن تعيش على مثال المسيح، وان تلهمك مشورته ووصاياه ومثله والأمثال التي نطق بها، لتكون مؤمنا يعني أن تعيش بتماس مع قوة الله الخلاقة المحولة، على رجاء أن تحمل هذه القوى الإلهية ثمارها.

أما بالنسبة لأناس آخرين فان البحث الأساس هو من اجل النظام، إذ يرون الوجود تمزقه التفككات والمتناقضات، وتهدده القوى اللاعقلانية المدمرة، ويتوقون بحماسة للسلام والنظام والوحدة. أن يؤمنوا يعني أن يكتشفوا في الله القوة النظامية المقدسة، والعدالة المطلقة، والإله الحكيم وسيد كل ما هو موجود – وان يخضعوا حريتهم الشخصية له،كذلك الإيمان هو موقف العقل الذي يقبل هذه القوة التنظيمية، والقانون الإلهي الفعال إلى الأبد. كما يعني الاعتراف بهذه السلطة العليا التي ليس فيها ما يدعو إلى الشك، وتتجلى الحقيقة المعصومة من الخطأ في مسيرة التاريخ. من خلاله نصل إلى إمكانية الخيار الصحيح بما يتعلق بمشيئة الله، وبفرح غالبا ما يكون مبهما لدى الأنواع الأخرى من المؤمنين وكذلك بحماسة صادقة. ان هذا النوع من المؤمن يحتضن الأساسيات النمطية المنظمة للحياة المسيحية.

نواجه - إضافة إلى ذلك - نوعا آخر من الإيمان وبالأخص في أولئك الأشخاص الذين يصعب عليهم التعبير عن أنفسهم. لديهم إدراك عميق بشكل خاص لتقلب الحياة وقصرها. فما نطلق عليه بالحقيقة لا يبدو واقعيا حقا بالنسبة لهم، إذ يعدونه بالأحرى ظلا. من أين يأتي هذا الشعور؟. لعله يأتي من رغبة التهرب من العيش ومن نوع من مزاج فاقد للحيوية، ومن تعب القلب أو من سبب آخر؟. على أية حال من الأحوال، يدركون ما يغيب بسرعة عن ذاكرة الرجال الموهوبين من القوى الحيوية العظمى - وبالتحديد مصادفة الحياة وصفتها غير الحقيقية، إنّ أشخاصاً كهؤلاء يتوقون لما يمكن أن يعطيهم خبرة كاملة عن الحياة، شيء لا يعد مشكوكا فيه، أو غير واضح أو محدد تماما، بل شيء قوي متماسك قادر على ارواء ظمئهم. كما انهم يتمنون البلوغ إلى حقيقة ليست لها أية علاقة بالمظهر المجرد، كي يشعروا بالحقيقة بأنفسهم تماما. غالبا ما يكون طريقهم طويلا، ففي بادئ الأمر قد يظنون انهم قد وجدوا ما كانوا يبحثون عنه في العواطف، وفي ثمالة المتعة، وفي الميل للقتال حتى يحين اليوم عندما يكتشفون إن هذا بمجمله يخفي الفراغ. وإن هذا الفراغ يوجد في كل مكان ولا يمكن أن يسده أي شيء ارضي. ومن ثم يدركون ان الله وحده قادر على شفاء هذا الجرح، فهو الكائن الحقيقي الجوهري الذي

يستطيع وحده أن ينقذنا من المظهر الخارجي. بإمكانه أن يجعل من الخليقة المتناهية - التي هي نصف حية فحسب - واعية بالحياة الحقيقية. وهنا يصلح الكسر ويجري نهر كامل.

الإيمان بهذه الحالة يعني الدخول في عالم الحقيقة الأصيلة، والحياة الحقيقية اللتين يدعمهما الرجاء في الإسهام بهما شيئا فشيئا" الإدراك " :كان هذا كل شيء للإنسان الجديد. كي نؤمن يعني أن تكون لنا قناعة بأننا نستطيع أن نجد أنفسنا هناك حيث " الإدراك " موعود".

هكذا قُدم لنا الإيمان تحت أشكال مختلفة. ومع ذلك يمكن وصف أشكال أخرى. ان الإيمان نفسه موجود في كل مكان، ولكن نقطة المغادرة والدافع الأولي مختلفان، إضافة إلى اختلاف المحتويات وذلك طبقا للاختبارات الشخصية المختلفة التي تتخذ، إلاّ أنّ هذا لا يمنع الهدف الأساس للإيمان من أن يبقى نفسه واحدا محتويا جميع هذه الأشكال. وهكذا فان الحقيقة الإلهية التي تكتشف هي فعلا فريدة من نوعها من حيث الكل والامتلاء اللّذين تشبعهما، غير ان كل شيء فيها ليس سهل المنال مباشرة بالنسبة للفرد المؤمن حسب المزاج الفردي.ومن هنا يمكن أن يكون لدينا حدس فطري لجانب أو لآخر،والتعبير عن "المسيحية الطبيعية " لفرد أو لآخر في بداية حياة الإيمان، فإنّ هذا الإدراك الجزئي للحقيقة يقنعنا في بادئ الأمر، وبعدئذ يبقى هو الأساس للإيمان. إنّ أية ظهورات إضافية لهذه الحقيقة ستبقى غريبة بالنسبة لها، وصعبة الاستيعاب والقبول، وستكون معرضة للأزمات والشكوك، وستتطلب جهدا خاصا.وفي كل هذا ستؤدي الطبيعة دورها لكل فرد، وستحدد الصعوبات،كما ستحتفظ أيضاً بقوى خاصة مفيدة عندما يقتضي الأمر.

إن هذه الأشكال المختلفة للإيمان لا تتواجد أبدا في حالتها النقية، ذلك لأنّ علينا دائما أن نتعامل مع أناس واقعيين وليس مع شخصيات مثالية. وهكذا يمكن للشخص الواحد أن يمتلك العديد من هذه الأشكال، أو ربما جميعها، ولكن بنسب مختلفة، إذ يكون للمرء شكل بارز من الإيمان يتسم بموقف المؤمن. فلتكن لكل شخص إذاً، ثقة في الطبيعة الفردية التي منحها الله له، ليجد أساساً لحياته هناك، وطريقاً ينكشف أمامه ليقوده إلى الله، ولا يجعله يخضع لأية صورة يعرضها أي شخص آخر، أو يستقبل أي إجراء من الخارج.

إنّ لكل هذه الأشكال من الإيمان صفة مشتركة ألا وهي: الخير الذي يدافع عنه، والحقيقة التي تضيء، والحب الذي يصبح ممكنا، والنظام الذي ساد على الفوضى، والحقيقة التي تعد إنجازاً. وفعلا لا تعود إنجازاتها الجوهرية إلى هذا العالم، إذ تأتي من الخارج من الله.من هذا المنطلق، يحتوي كل جانب من الإيمان دائما في داخله على الرغبة لما هو ابعد من هذا العالم، وكذلك الشوق لما هو مقدس والميل إلى العبادة، إلاّ ان الطريق الذي يجب أن يسلكه هذا الشوق إلى الله صعب الاجتياز، كما انّ له أشكاله المميزة المختلفة.

كدليل لوصف هذه الأشكال المختلفة للإيمان؛ اخترنا مفهوم " البنية "أي هيمنة قدرات معينة للنفس والقيم التي تنسجم معها. كان بإمكاننا أيضاً أن نستّخر أدلة أخرى، فكان بوسعنا على سبيل المثال، التمييز بين إيمان المرأة وإيمان الرجل. يهتم الأخير بشكل أولي في العالم الموضوعي، في عمله ومهماته وخصومه وهدفه -أو أي مصطلح قد نوظفه لهذا الأخير - في حين ان الأولى تستحوذ على فكرها بداهة الحياة في الوجود، والصيرورة، والحبل، والولادة، والحماية، والتربية، والتعاطف، وتولي الأمور، ومن ثم العيش في عالم معقد يخضع الواحد فيه إلى الإيقاعات والرموز. ان هذين الصنفين من الجنس البشري يطور كل واحد منهما إيمانه الشخصي، وبأسلوبه الخاص... سيكون تركيب الإيمان شيئا واحدا بالنسبة لأولئك الذين يربون

ويعلمون ويشفون ويساعدون ويخدمون، لكنه شيء مختلف لأولئك الذين يقاتلون ويقهرون ويحكمون.... الخ.

ان حقيقة كوننا أعضاء في هذا النوع من الناس، أو ذاك سيكون لها تأثيرها في شكل إيماننا - إلى حد قد يبدو فيه نوع الإيمان والتكريس الخاص بالناس المجاورين منفصلا عنا، وقد يبدو غريبا، أو حتى عدائيا،أو غير نقي ومخالفاً للروح المسيحية. هذا عينه يحدث مع الجماعات مختلفة الأعمار وصفاتهم الخاصة، ومع مختلف شرائح المجتمع، والمستويات الفكرية والمهن ...والخ. إن إيمان الكاهن الذي تمثل له حقيقة الدين بحد ذاتها مضمون دعوته سيتجلى بشكل مختلف عن إيمان الرجل العادي، إذ إنّ الأخير يعيش في العالم ويرتكز على العالم، ويواجهه الدين تحت رعاية مختلفة تعزل خصائص معينة، وتخضعها إلى ما هو عملي.

أود أن الفت انتباهكم لاختلاف آخر يبدو لي ذا أهمية خاصة، بالتحديد ذلك الاختلاف القائم بين نوعين من الإيمان هما: الإيمان الوفير، أو المملوء، والإيمان الفارغ. يمتاز النوع الأول بأولئك الذين لديهم وعي حي ومباشر لمضامين الإيمان، والأمر ليس وجوبا عليهم بالضرورة أن يكونوا أتقياء بشكل خاص أو أناساً ذا تفكير عميق، ففي تلك الحالة لن تعد المسألة تتعلق " ببنية " الإيمان، ولكن بجديته – إلاّ انهم يمتلكون فعلا الموهبة في أن يكونوا حساسين خصوصا لما هو حي في كل شيء يواجهونه. فالأشياء والأفكار والأحداث برمتها تتحدث إليهم، ويحدث الشيء عينه مع إيمانهم إذ يشعرون بما يؤمنون. إن شخص المسيح وتفاصيل تعليمه وإمكانيات المصير الأبدي،كل هذه الأمور تثير مشاعرهم، وتغمرهم، وتخفيهم، وتعزيهم، وتبهجهم كما تنمو حياة إيمانهم عبر مسالك مختلفة ربما تكون بسيطة أو ظاهرة للعيان بغزارة، أو عميقة، أو سطحية، أو رفيعة، أو سوقية دارجة مألوفة - لكن الحقيقة المسيحية هي التي تمسهم دائما وتعمل على وفقهم بشكل مباشر.

إنّ موقف الشخص صاحب الإيمان الفارغ مختلف تماما. ففي حالته، تتواجد الأشياء أيضاً لكن الروح تبقى باردة، إذ تدرك ان هناك قيماً بيد انها لا تختبرها اختبارا مباشرا. فالأهداف محددة والقرارات قد تم الوصول إليها، والعزم الذي يقحم نفسه في حافز وأعمال وصراعات يبذل جهدا، ولكن ما من شعور خاص للتعهد. مما لاشك فيه، سيتم بلوغ هذه الغاية، ولكن الطبع سيظل غير مكترث، فالشخص يعرف ويفهم الأفكار ويختار ويتصرف ولكن بتعمد وانضباط وجهد فقط. فتبقى الطبيعة الأساسية لشخصية الفرد غير متأثرة، ويبدو الحيز فارغا. ليست للوقائع كثافة وتظهر الحقائق مجرد كلمات.

يميل المرء أولاً للقول بان الموقف الأول هو ذلك الخاص بالمؤمن، أما الثاني فهو مجرد عدم اكتراث، وكسل، وبرودة، وضعف روحي... الخ. ان حكما كهذا، ليس سطحيا فحسب بل زائف.فالإيمان حاضر هنا أيضاً، ولكن تحت مظهر خارجي مختلف. في الحالة الأولى يتولد الإيمان عن خبرات داخلية تعطيه الدفء والقرب والغنى، ولكن تخاطر في جعله وهميا، أو خداعا، أو ضحلا، أو زائفا. بينما يتسم الموقف الثاني بالفراغ. ومع ذلك، في هذا الفراغ يدرك معنى روحي ينفع كأساس.لروح لا تتأثر بأية غيرة، لكن هذا الجفاف عينه هو شيء باسل. ان كل ما ينجز يتم على نحو طوعي وبصعوبة، وفي هذا براءة عظيمة. ان موقفا مجدا كهذا قد يفيد كبداية لشيء أصيل وشريف حقا.

إنّ الاختلاف مهم، إذ يبدو اليوم النوع الثاني من هذين الموقفين اكثر شيوعا. ربما نجتاز مرحلة من إيمان الغنى إلى إيمان الفقر، يبدو ان الفن الديني والكنائس الجديدة تشير إلى هذا

لأنّ بساطتهم لا يمكن تفسيرها بمجرد اختبار للبدع، أو بافتقار الوسائل، بل انها شاهد لتغيير عميق في الموقف إزاء الإيمان عندما تكون الغرف فارغة والجدران عارية، يعبر الإيمان عن ذاته في الواقع الذي في الفراغ والحيز الخالي والسطوح الملساء، يأمل التعبير عما هو روحي كما يظهر في موضوعية لا شائبة فيها دون ان يفقد ذاته في وفرة التفاصيل. انه الإيمان الذي لا حاجة إليه للدعم لأنه قادر على الانتصار برغم فقر الأساليب بعد الاستخدام المترف لرموز وصور وأشكال العصور الماضية، يظهر شكل للإيمان يتوق إلى تبسيط وعودة إلى الينابيع والى الوعي.أصبح التنوع غريبا بالنسبة له، أما إمكانية وجود تفسير مقنع لكل شيء فتتركه حائراً. يتوق شوقا شديدا إلى حياة فقيرة وبسيطة مع استقامتها، طالما نحن لا نحوّل هذه النزعة إلى دين خاص، ولا نصبح متعصبين بشأن الأشكال الأخرى للإيمان، فإن هذا الموقف شيء حسن وبوسعه ان يؤدي دورا حيويا في الخبرة المسيحية وتضاف جميع هذه الاعتبارات إلى حقيقة مهمة واحدة: يوجد الإيمان تحت أشكال مختلفة، وذلك حسب مزاج وقدرة كل فرد، والبنية التي يتميز بها، ووضع حياته والناس المعينين والعمر. تمثل هذه الأشكال، إلى حد معين، الأرض التي يعيش فيها الإيمان، كما تحدد صيغة خاصة للنمو طبقا للموارد والصعوبات التي يتميز بها كل واحد، والمهمات التي توضع أمامه. وقد نقول بان في هذه الأشكال يتم التعبير عن الدعوة الخاصة التي يتخذها إيمان كل واحد، لكن النواة الجوهرية للإيمان، التي يقصدها الكتاب المقدس عندما يقول " من يؤمن ... سيخلص، ولكن من لا يؤمن سيدان "، تميزت بالضرورة عن هذه الأشكال الخاصة.

الإيمان بحد ذاته يكمن في حقيقة مفادها: ان نواة الإنسان، " وهويته " المجردة عن كل شيء و" لب قلبه " يدعوها الله بغض النظر عن كل البنيات، وبأنه قد استجاب إلى هذه الدعوة. ليس أساس الإيمان البنية بل الطاعة والولاء.

هذا يقودنا للتوصل إلى استنتاج آخر بشأن الإيمان: بالتحديد ان للناس استعدادات تنعكس بشكل مختلف وبدرجات متفاوتة. على وجه الخصوص، هناك موقف ديني، أي ميل إلى إدراك ما هو غير مرئي في وسط الشيء المرئي الأبدي من خلال المتناهي وسريع الزوال في حالة كهذه، ما يتم تحقيقه ليس " الحق " ولا "الخير او العدالة " ولا " الجمال " او " النظام والتدبير " ولا اية قيمة " دنيوية "، ولكن " الشيء المقدس "اخذين هذه الكلمة في أوضح معانيها، كما توظفها الأديان المقارنة. يتم إدراك قيم أخرى، ولكن إلى حد كونها حاملات للشيء المقدس او الطاهر أي الحقيقة المقدسة والجمال والنظام. تكمن هذه الحساسية الدينية في نوع من الاحترام أو التبجيل، ونعمة العاطفة التي تسمى "الشفقة" .

للوهلة الاولى، قد تبدو هذه البنية كباقي البنيات، لها صفاتها المتميزة: علو وعمق وسعة وشدة وتعدد ورباطة، قد نجد فيها أشخاصا موهوبين بشكل خاص، أو عباقرة مبدعين أو أناساً عاديين من الذين هم اكثر التزاما، وأخيراً، قد نجد أناساً آخرين من الذين وهبوا أنفسهم بتواضع يعوزه الإحساس. نواجه العفوية والكد المجد والصفاء وعدم الصفاء والروتين - وبوجيز الكلام، السلسلة الكاملة للقيم وكلا من الصواب والخطأ. ولكن، في ما بعد نسأل أنفسنا :ما العلاقة بين هذا كله وما يسميه المسيح إيمانا؟ بين هذا بأجمعه وما يحدد خلاص أو ضياع الجنس البشري؟

إنّ هذا السؤال ذو أهمية قصوى. فأوقاتنا منهمكة بالتحري عن تكوين الحياة التشكيلية مع الملامح المتزايدة دوما، لقد طورنا فلسفة دينية وعلم اجتماع و....الخ. ولكن لو كان لنا ان نحدد الإيمان بنزعة دينية، سيكون هناك مؤمنون طبيعيون من جهة وغير مؤمنين طبيعيين من جهة أخرى. حقا، ان هذا الرأي هو السائد في الوقت الحالي، ولكن إن كان الأمر كذلك،

ستكون رسالة المسيح للناس مسألة موهبة فردية أو مناشدة. كلا، الإيمان الذي يتحدث عنه المسيح ليست له أية صلة بالنزعة. ان الأشياء المضللة الأساسية لما وراء أي شيء هي ضمن مدى الإدراك النفسي وتنشأ مباشرة من الجوهر الداخلي للإنسان إلى الله. يفيض الإيمان حسب مظاهره او أعماله أو مواقفه في بنيات وذلك استنادا إلى نزعات مسبقة لمختلف الأفراد، غير ان دعوة الله تؤثر في المرء في مكان آخر، والقرار الذي يتم اختياره يكمن في مكان آخر. ربما نميز بين جسد وروح الإيمان. يختلف جسد الإيمان بناءً على الميول المختلفة والدول والأعمار والظروف الإنسانية، أما روحه - أو بشكل أدق مركز روحه - فهي مستقلة من النزعات، وفي هذا العمق - كما لاحظنا أصلا - هناك لقاء خالص بين الهوية الإنسانية والله، إنّ هذا اللقاء الأسمى هو شيء جوهري من خلال اختلافات البنية كافة والاستعداد.

اما بخصوص الموقف الديني، فهذا ينتمي إلى الروح بل إلى " جسد " الإيمان. صحيح إنّ هناك إيماناً يتّسم بنزعة كهذه، غنيا، مبدعا، غزيرا بالموارد، يكون معرضا إلى خطر واضح: إذ ان النزعة نفسها التي بإمكانها أن تقود نحو الإيمان، بوسعها أيضاً وعلى حد سواء أن تقود نحو الشر. وقد تعالج شخصا غير ثابت يشتاق إلى انطباعات دينية، مبالغة ومتعصبة. ومن جهة أخرى، قد يكون غياب النزعة الدينية عقبة، وقد يعني انه ليس هناك دافع ولا عمق ولا تأثير ولا" خبرة" برغم ذلك، ان إيمانا كهذا يتم بالولاء والإخلاص والنزاهة والصلابة. إضافة إلى ذلك، ان الأصل الإلهي للإيمان تكشف قدرته للتقويم مباشرة لكل ما ينشأ عن الميول التلقائية أو من البيئة، أو حتى البيئة الكاثوليكية. ان الإيمان سريع في الكشف عن ما هو مشكوك فيه وإظهار قيوده وارتباطاته وأشيائه الملوثة العالمية،وإزالة القناع عن الأوهام. أحيانا يكون الإيمان مخفيّا بشكل جيد للغاية تميل إليه هذه النزعات الخارجية.

وان كان صحيحا فإن النزعة الدينية بحاجة إلى امتلاك فرد معين أو افتراضات مسبقة، لأنها تحت تأثير ثقافة خاصة، قد تضعف أو تخفي الوعي الديني، وان وجد حقا الشخص الذي بوسعه الاستغناء عن ما هو " مقدس " – لكن علينا بالرغم من ذلك، أن نتذكر ان القرار الأساس الخاص بالله يكمن خارج هذا النظام الكلي للقابليات والنزعات تماماً. ربما يكون من غير الممكن إثباته من الداخل،وحتى قد يكون الفرد ذاته غير واع بشكل تام لما يحدث في داخله أو معناه المسيحي ولتلك العلاقة القائمة بين الهوية الإنسانية المجردة عن كل شيء والله ان هذه المسألة الأخيرة هي بالطبع موضوع الإيمان نفسه. المسألة الحيوية المستقلة عن كل البنيات، هي ان نعرف ان الكائن، بغض النظر عن ميوله الفردية ومن ابعد منها، يدعو الله وقد استجاب، علاوة على كل الأوضاع والظروف، وبان هذه الدعوة قائمة، وكل واحد منا باستطاعته أن يؤمن وعليه القيام بذلك " يتمنى الله الخلاص لكل البشر " – حتى أولئك الذين أوقفوا شيئا رديئا من الناحية الدينية ! ان الإنسان الذي يجد نفسه في هذا الوضع الأخير مضطراً إلى أن يسلك حياة صعبة مليئة بالتخلي من وجهة النظر الروحية، وان يحاول حقا أن يحظى بالإيمان فسيبقى في عين الله مؤمنا برغم كل هذا الجفاف ويبقى الأسمى. أن نؤمن بهذا فهو مسألة إيمان بالطبع ومسألة إيمان ممزوج برجاء، ولكن شخصا كهذا يستطيع ان يؤمن في النهاية فقط وينبغي له ذلك.

# الفصل الثامن

# المعرفة في الإيمان

يقول القديس انسلم من كانتربري في عمله صعب الفهم الذي يحمل عنوان "Proslogium" ما يأتي:
"لا معرفة دون خبرة، ولكن لا خبرة دون إيمان".تكون هذه الجملة نوعا من السلسلة: الإيمان هو البداية ويجعل الخبرة ممكنة. وأخيراً الخبرة تولّد المعرفة. فإذا أسيء فهم هذه الجملة، فستؤدي بنا إلى فصل القوى والأحداث التي تكون فبواقع الأمر وحدة حية. وإذا فهمت كما ينبغي، فستساعدنا على اكتشاف جانب جديد للإيمان.

يطرح القديس انسلم أولاً "إيمانا " لا " يعرف " شيئا بعد. وبفضل تنوع الظروف يواجه الإنسان كلمة الله ويؤمن بها. بالفعل، ان مسألة " المعرفة " موجودة هنا أصلا، ينبغي لي أن أكون قد توصلت في الأقل إلى نتيجة مفادها بأن في الكنيسة وتعليمها وفي شهادة رسل الله وفي شخص يسوع المسيح، علينا ألا نكتفي بمجرد الحكمة الإنسانية التي تتكلم، مهما كانت عميقة، ولكن بالحكمة الإلهية. يجب أن ادرك ان هناك شيئاً اكثر عمقا من مجرد العاطفة الدينية: بالتحديد. موهبة إلهية، حلول جلي لله في الزمان. بالرغم من ذلك، بالنسبة لأنسلم فإن هذه المعرفة هي استعدادية فقط، إذ تقودني إلى ذلك القرار المهم فوق كل شيء آخر :أن أؤمن بالله الذي يتكلم، وأصغي إلى دعوته واخضع إلى مشيئته والتزم بولاء به. اقبل ما يقوله لي، وارحب بما يكشف لي عن ذاته. هذه الطاعة لكلمة الله هي اصل الإيمان. ولكن هذا الإيمان، حسب انسلم لا " يعرف " بعد شيئا، ولا يفهم حتى الآن محتواه. بالطبع، هناك معرفة محددة. لابد للإيمان، والى مدى معين، من أن يكون قد فهم محتواه، طالما ان الإدراك بان الله الذي يتكلم هنا يعني إدراك من هو الله ومن هو الإنسان في ما يتعلق بالله ولكن ...جوهر القرار، واصل الإيمان يكمن في أساس الكلمة البسيطة التي يؤمن بها المرء، وقبول السر الحاضر هنا دون تحفظ وجعله البداية لحياة جديدة.

وهكذا فإن البذرة المنغرزة تبدأ بعدئذ بالنمو، حيث يتوغل المؤمن في محتوى الإيمان، ويسعى إلى فهم معناه العميق وتركيبه الداخلي، وخزن المتطلبات التي يقتضيها، يتقدم شيئا فشيئا من الطاعة البسيطة للمعرفة الداخلية بما يكشف النقاب عنه. يرغب في العبور، حسب مصطلح الفلسفة القديمة من الحكمة؟ "PISTIS" إلى " المعرفة الروحية GNOSIS". ويقوم بذلك ليس بالفهم الطبيعي الذي يقيده هذا العلم، بعقلية إدراكية تنبثق من نعمة منيرة. إضافة إلى ذلك، تنفتح عين الإيمان إلى نور النعمة وتستوعب وبشكل أوضح كل هذه الحقيقة لله التي تنكشف. ليست معرفة كهذه بشيء سوى نمو الإيمان.

إلا ان هذه المعرفة تحدث في " الخبرة " اي بالاقتراب الواقعي من الشيء وسبر الغور ولمسه وتذوقه. بهذه الطريقة فقط ينمو محتوى الإيمان كالبرعم مليئا بالحقيقة والقيمة، يقدم ذاته على نحو واضح إلى العقل ويتوغل في القلب عينه.

مع ذلك، لا يتوقف الإيمان بأن يكون إيمانا. ويتحول إلى معرفة فقط بالمعنى الإنساني للكلمة، ولا حتى إلى تلك المعرفة الأسمى التي هي نتيجة الوعي المتطور. إنّ الإيمان أساساً هو طاعة الإنسان لله المقدس غير المدرك،والخضوع اليقظ للإنسانية المتناهية إلى حقيقة خالقها ومولاها، الذي عند كشفه لذاته، قد اظهر حالة الإنسان الخاطئ وعدمه. هناك ثغرة من

الاختلافات التي ما من شيء يستطيع أن يملأها، إذ يبقى الإيمان دائما قبول الطاعة لحقيقة الله غير المدركة التي تتوجه نحوها البشرية. إنّ هذه الطاعة ستمحى إذا ما كان على الإنسان أن يتوصل إلى معرفة كاملة لحقيقة الله، لان حقيقة كهذه ستكون امتلاكاً أو هيمنة. فالمعرفة الوحيدة الممكنة تؤسس على الطاعة: تأتي من ذلك القبول الذي ذكرناه آنفا، والذي يترك تمجيد النفس. وتتحقق في تسليم الذات الدائم إلى حكم الله القدوس. المعرفة في الإيمان، حسب طبيعة الإيمان وباعثه، يقضي عليها حالما يحطم الإيمان بالرغم من ذلك، هي معرفة أصيلة، " معرفة " حية بمعنى الحضور الداخلي والتوغل.

ذكرنا مرارا ان هذين الشيئين لا يمكن رؤيتهما بشكل منفصل. عندما يميل العقل القلب إلى هذه الطاعة،فذلك بفضل نور من " المعرفة " المحددة التي تنبع من النعمة، ومن هاجس الإيمان. لا يمكن للإيمان أن يكون أعمى، وهنا أيضاً نوع معين من الخبرة، " إظهار القوة " التي يشعر بها جوهريا من يؤمن. فالواحد يحمل الآخر، لان ما يوقظ ويطور يمثل الكل.ومع ذلك فان قول القديس انسلم هو في غاية الأهمية إذ يلقي الضوء.

سنتكلم الآن عن هذه الخبرة، بداية المعرفة. ليس بشكل عام - لأن ذلك يقتضي حياة بأكملها -بل جوانب معينة منها. إنّ الخبرة بالنسبة للمؤمن تعني العيش مع الحقائق، والأشكال والأحداث والقيم التي تمثل محتوى إيمانه، وتعني تبني هذا المحتوى بأكمله وحفظه في الضمير والتأمل به، واللجوء إليه في مختلف ظروف حياة المرء وفكره، إلى أن تكشف ذاتها في آخر المطاف للمؤمن. ان تعليم الإيمان، في الواقع، ليس له أية علاقة بالافتراضات العلمية. طالما افهم العلاقة بين كمية حسابية وأخرى، فالمسألة واضحة، وعندما اعرف ان مزج عنصر واحد بعنصر اخر يكون مركباً معيناً، لا أسعى إلى معرفة المزيد.. وعندما تعلمني مصادر تاريخية جديرة بالثقة ان شخصا ما قد عاش في حقبة معينة وعمل هذا وذاك، فالمسألة محسومة.بيد ان الأمر ليس كذلك بالنسبة للإيمان، فالسؤال هنا يخص حقائق صعبة الفهم، وعمقاً حياً لا يصف نفسه، إلاّ بشكل بطيء فقط، بل بالأحرى عليّ أن أتكلم عن عمق مقدس يكشف عن نفسه في ظروف محددة، إذ انه يقتضي حالات محددة من المعرفة والمواقف: هذا هو تماما معنى" الخبرة ." وهكذا يؤكد لي الإيمان ان الله يحب الإنسان. بإمكاني قبول ذلك ببساطة كما يرى الطفل ان الرب كلي الجودة يتخذ موقفا وديا جدا إزاءه.غير ان هذا المعنى العميق وعواقب هذا التأكيد تنكشف أمامي على نحو بطيء. ومن اجل التوغل فيه ينبغي لي أولاً أن افهم ما الإنسان، ذلك الكائن الذي هو مزيج من الخير والشر، مليء جدا بالمتناقضات، غريب، تافه، يائس ومع هذا كله عظيم جدا.

يجب أن أتعلم ما على الحياة أن تخبرني عن الوجود الإنساني وتحدياته وقدره. بالطبع لا يمكن لهذه العبرة أن تحفظ مجرد حكمة إنسانية، إذ تكمن في اسفل الإيمان وهي ممكنة للفرد الذي ينظر ويحكم ويتصرف كمؤمن فقط. وهذا الأخير وحده يقدر على أن يسبر أعماق هذه العبارة: الله يحبني.

ينطبق الأمر كذلك بالنسبة للعناصر الأخرى لمحتوى الإيمان على أن أعايشها كل يوم واعتمد عليها. يجب أن تكون في آن معا ظروف وأسباب وأهداف حياتي. ومن ثم تنكشف لي فيصبح عمقها ذا معنى وعلاقاتها الداخلية اكثر تحديدا كما تصير الحقيقة ظاهرة. الفضل يعود إلى خبرة كهذه بحيث تنمو المعرفة في الإيمان: المعرفة المقدسة، ثمرة النعمة.

ليست حقائق الإيمان مجرد حقائق يمكن استيعابها فحسب بأسلوب نظري صرف. لو كان الأمر كذلك، لكان بالإمكان سبر غورها عن طريق البحث والدراسة. على العكس من ذلك،

يعني الإيمان بلوغ الإنسان الحقيقة، وهذا يستلزم عملا محددا يهدف الى الله على انه المصدر والنهاية. سينال الإنسان قوة للتحكم بالحياة. ولكن كل مسائل المتطلبات والإلهامات والقوى الروحية تصبح ملموسة إلى الحد الذي يختبرها المرء.

لا أفهم حقا خريطة الطريق التي جلبتها معي ما لم أتحقق من معنى ومغزى كل علامات ورموز الموقع، وهكذا أستطيع معرفة أية ثقة سأضع فيها.ان إجراءات الأمان التي يوفرها قارب ما واحتمالات التحرك او الصمود يتم تحديدها فقط حال ركوبي على متن القارب. ومن هذا المنطلق، وفي سبيل إدراك محتوى الإيمان علينا أولاً أن نختبره." ان تثبت في كلمتي... ستعرف الحقيقة " فإن قيل لي، على سبيل المثال، ان كل شيء يحدث يعزى إلى العناية الإلهية وإنّ يد الله هي فوق حياة الإنسان بأكملها وفوق كل تفاصيل هذه الحياة. سيبقى هذا الجزم رسالة ميتة طالما لم اختبره، إلاّ عندما اقرر التأمل بكل شيء يحدث لي، أي كلاً من الخير والشر على انهما يأتيان أساساً من الله. إن هذا سهل القول لكنه صعب التطبيق: صعب إلى ابعد الحدود بالنسبة للإرادة الإنسانية اليائسة بشأن عجزها ومع ذلك تتشبث به بعناد، تتسم بالكسل والإهمال لكنها ثائرة ومتكبرة. بيد إنني عندما أتصرف كذلك إلى حد أقوم بذلك فعلا، تظهر حقيقة هذه الثقة في العناية الإلهية. عندما أكون مقتنعا تماما بأنني تسلمت من الله مهمة خاصة. وبان كل حدث يقدم لي فرصة تحقيقها. وعندما أدرك فقط بان في هذا الوعي ومن خلال الفرح والحزن والنجاح والفشل اصبح واعيا بوجود قوة توجهني وتسودني - وهذه بالضبط هي حقيقة الإيمان التي نعنيها الآن. حينها تظهر الخبرة للعيان: إذ تتجسد أفكار الإيمان في مسألة الخبرة، لقد أرشدنا حياتنا طبقا لهذه الأفكار، وكشفت النقاب عن محتواه، واكتسب الإيمان في المعرفة.

لا أؤمن بالأفكار بل بالوقائع. فالله الذي أؤمن به ليس بفكرة القيمة الأسمى، فكرة العدالة المقدسة، أو أي شيء من هذا القبيل، هو حقيقي. أن مصطلح "حقيقي " يعبر وبجدارة عما يعنيه، فالأرضية التي استند إليها هي حقيقية، والجدران التي اصطدم بها هي حقيقية، والناس الذين أتشاجر معهم هم حقيقيون، وقوة العقل التي تلهيني أو تلهمني هي الأخرى حقيقية. الله حقيقة - بالطبع في طرق شتى. هو حقيقة في كونه كائنا بحد ذاته، المقدس الذي في نظره يبدو وجودنا خاطئاً وعقيماً. الخالق والسيد..... والمسيح حقيقي، هو ليس فكرة الإنسان -الإله فقط، فلو كان كذلك، فسيكون مفتقرا إلى القوة، غير انه ابن الله في الأمس واليوم والى الأبد "حيا وحاضرا... والتأثير الذي يمارسه خلال التاريخ حقيقي في الكنيسة وفي كل نفس، - ليس في الأفكار وفي الأحاسيس أو الخبرات التي نمر بها فحسب، بل في " الولادة الجديدة بالروح القدس" ، و" النمو " نحو مجد أبناء الله.

الإيمان هو أن تكون متمسكا في هذه الحقيقة. أمن الممكن بالنسبة لي أن أدرك بولاء محتوى هذا الإيمان، وان اهتم بشأنه، واجعل حياتي تنسجم معه، ما لم تنكشف لي الحقائق المهمة التي يتضمنها؟.الله يحبني أليس كذلك؟. ألم يأت المسيح من اجلي - أليس ممكنا إذاً أن يتجلى فيَّ؟ دعونا نسأل أنفسنا:كيف يمكن أو لا يمكن ذلك - بالرغم من انه يستحيل عليّ أن ابحث بمشقة عن الله حسب مشيئته، ما لم يمنحني الله كلي المحبة، وكلي القدرة، إدراكا حسيا لحقيقته المقدسة، وإلاّ فإنه يعرف بمحبته أن يحسن إليَّ كي بالجهد الصعب " للإيمان الخالص" ، أو أن يفرض عليّ بعدالته الاختبار بسبب خطاياي.

هناك خبرة أخرى أيضاً، وهي اكثر الخبرات عمقا: الحقائق المقدسة تصبح حقائق. هذا ما قصده الكاردينال ( نيومان) عندما تكلم عن " الإدراك " أي ان حقائق كهذه تترك عالم الفكر، أو النية، أو الإرادة لتصير وجودا حيا أو لتكتسب قدرا حقيقيا. لكن هذا قد يستغرق وقتا طويلا، نعم، وقتا طويلا جدا. فقد يبدو إن أشخاصا معينين يتهادون ولسنوات عديدة في خدمة الإيمان

الخالص متضايقين من بعيد. ومن ثم يأتي يوم فيه لم يعد الإنسان يحمل الإيمان بل إيمانه هو الذي يحمله. إن مضمون العهد الجديد مكتوب " من اجل تنويرنا " ولكن كم هو مختلف إيمان الإنسان في تلك الأزمنة عن الطريق الصعب والنائي حيث " نؤمن بثبات " ماذا نكشف وماذا يعلمنا؟ الناس في تلك الأزمنة. عانوا واضطهدوا، وقاوموا وفشلوا، وحتى دنوا للموت في بعض الأحيان، الا ان الحقيقة المقدسة قد اثرت فيهم وصدمتهم وجعلتهم متحمسين، او سحقتهم. لقد كتب هذا لمنفعتنا أيضاً.

ان كل هذا واكثر منه في كون هذه العبارة لابد من ان تعني: ينبغي للإيمان ان ينمو من الخبرة إلى المعرفة. علينا ان نكون ذا علاقة بالتاريخ الداخلي للإيمان، الذي يظهر للعيان حين يتعايش المؤمن مع هدف إيمانه. ويواجه، في حياته اليومية، مضامين إيمانه، وفي بعض الأحيان ينكشف النقاب عن جانب أو آخر أمامه وبشكل أوضح، حيث تبدأ المستويات الأعمق بالظهور بوضوح، وينظر إلى دافع الإيمان على انه اقتراح أو أمر على حد سواء: يصبح واعيا لما يتطلبه الإيمان منه. يوجه حياته حسب إيمانه، ويضع لحياته قالبا موافقاً له، كما يجعله مقياسا لوجوده. وهكذا يصبح عارفا ما القوة التي يضمنها إيمانه، وكيف يضمن له الإيمان الثبات والدعم والأمان. ما تسلمتهُ أولاً كالتعليم والقصة والرسالة يتغير في القوام والكثافة والوزن، ينكشف على انه حقيقة. جميع هذه الأمور هي للتواصل مع الخبرة الإنسانية: العمل والحياة والتحدي والقرارات الجريئة، ولكن في كل هذا الله هو الذي يعمل، لان الإيمان نعمة. أن نور الله ينمي مضمون الإيمان في المعرفة. وأخيراً، برعاية الله تبلغ طاعة الإيمان إلى رباطة جأش سارة. فالله بنفسه، كلي القداسة يتجلى كحقيقة حية حيث مكنتنا الطاعة من أن نتذكر ونفكر.

وقد يحدث ان المعرفة في الإيمان تفترض شكلا خاصا يدعوه القديس برنارد كليرفو" cognito Dei experimentlis"، أو معرفة الله بالخبرة المباشرة،والتي يمكن ان يطلق عليها على نحو طليق " الروحي". كانت التحقيقات العلمية تهتم بمسألة فيما إذا كان بالإمكان وجود أو عدم وجود خبرة مباشرة عن الله، وفي ما إذا كانت خبرة كهذه استثنائية أم موجودة في الطريق الطبيعي نحو الإيمان... قد صور بعضهم الخبرة الروحية كشيء ذي قيمة غامضة، خطير على نقاء واستقامة الإيمان المسيحي ... في حين رآه بعضهم كشيء مثير من وجهة النظر النفسية، أو كموضوع أدبي، أو للتسلية أو كغرابة دينية... الخ. هذه المواقف بأسرها تهمل تفسير البرهان المسيحي الذي يستند إلى المؤمنين بما يمليه الضمير: بالتحديد ان الله هو اله حي، وفي المسيح الله قريب، أي فيه " نحظى بالحركة والحياة والوجود ." هو الحب والحرية والنعمة -وما من قوة في هذا العالم او نظرية علمية او قياس منطقي لاهوتي بوسعه أن يمنعه من التأثير في النفس التي تسره. الإيمان الذي اتخذ بتواضع وجدية، الإيمان الذي يتسلم من الله الشوق إلى مباشرة في الحب والذي لم يجعل هذا الشوق يموت، لكنه صلى دون انقطاع من اجل تحقيق هذه الرغبة، مهما تكن فترة الانتظار طويلة فان الإيمان -الذي لا يكتفي بالقناعات المؤقتة بل بثقة ابن الله -يبقى مرتكزا في الجوهر. إيمان كهذا يصل دون شك إلى ذلك الذي نقصده بـ " الروحي " إلا أننا نفضل التكلم ببساطة من ملء بالإيمان. وهكذا نعود إلى ما قيل أصلا والذي ينبغي ذكره ثانية ومن جديد كأسلوب للخاتمة: " يبقى الإيمان إيمانا دائما ".

بالرغم من كل ما تقدم في حقل المعرفة، وكل الخبرة مهما تكن قوية وغنية تجعل الإنسان ينتقل من الجسدي إلى الروحي، فان معرفة كهذه تبقى معرفة الإيمان، كما لا يمكن للإيمان أن يحل محل المعرفة المباشرة قط. علينا دائما أن نتقبل في داخلنا هذه الحقيقة بواسطة المسيح، ونستلهم الوحي من الله. ان مهمتنا دائما متواضعة وشجاعة تكمن في السماع بطاعة والعمل بجرأة.

# الفصل التاسع

## الإيمان والكنيسة: العقيدة

لو كان إنسان يعيش في القرون الأولى قد سئل: ماذا تعني الكنيسة في إيمانك؟ - لكان قد أجاب ربما ان الكنيسة هي الأم التي حملتني، هي الهواء الذي أتنفس، والأرض التي امشي عليها. حقا إن الكنيسة وحدها تؤمن، وإيمانها هو الذي يحيا في إيماني.. من دون شك، نحن – الناس المعاصرين –لا نرى هذه المسألة في هذا الضوء، فبينما نفهم ونقبل بموقف كهذا، علينا أن نعالج هذه المشكلة من وجهة نظر أخرى. وفي الغرب، تنبثق في الوقت الحالي الفردية التي من خلالها يحرر الفرد نفسه من قيود المجتمع كي يجد أساسه في نفسه.

جميعنا يعرف ان هذه النزعة تبعث على الأسى في جوانب عديدة، اذ تعطي انطباعا عن فكرنا وتفتح مسارات معينة إزاء الحقيقة، ولكنها تعرضنا في الوقت عينه إلى الخطأ برغم كوننا قد اضطررنا إلى التراجع شيئاً ما، ينبغي لنا مع ذلك،الاّ نأخذ في نظر الاعتبار هذا الميل الفردي او حتى نوظفه كنقطة البداية.

عندما نأمل ان نصل إلى جوهر الإيمان، فمن الطبيعي جدا أن يروق لنا موقف المؤمن الذي يواجه هذه المشكلة في ضميره إلا وهي: " أليس الله يتكلم هنا؟ أينبغي لي أن أؤمن؟ او هل أجد ما يبررني في اتباع نزعاتي الشخصية، .... أيجب أن اتخذ الخطوة في الإيمان، أم عليَّ أن أبقى ناشئا في ذاتي؟ ". الوحدة التي عن طريقها لابد للضمير من ان يقرر اتخاذ مسؤولية الإيمان، الجرأة التي تتطلبها هذه الخطوة، والثبات والإرادة التي يجب ان يصاحبهما القرار – هذا كله يشير إلى جدية الإيمان. يعرف الفرد بانه يقف وحده، وما من أحد بوسعه اتخاذ القرار نيابة عنه. عليه أن يتغلب على الصراع بين الإيمان ونفسه وحياته وعالمه: فليس بإمكان أحد ان يقوم بذلك بدلا عنه.

ان هذا برمته تماما قد يؤدي إلى تأكيد الفكرة المعاصرة نفسها المتمثلة في العزلة والسيطرة على النفس. ولكن ينبغي ان نطرح على أنفسنا السؤال التالي :انت الذي تتحدث بهذا الشكل، من أين يأتي إيمانك؟ هل هو مستمد من ذاتك؟ ام هل تسلمته مباشرة من الله؟ بالطبع، كلا ! لقد ربّاك والداك، وعلمك معلموك، وتعلمته من الكتب. لقد تسلمت إيمانك من ممارسة الإيمان في خورنتك ومن تقاليد بيئتك.لم تتسلم مجرد مضامين معينة وتعاليم موضوعية بحتة، يعود الأمر إليك في أن تحوّل هذه الأشياء إلى إيمان أو أن ترفض الإيمان كما قد يكون الحال، ولكن إيمانك بحد ذاته سبيل للحياة لكل من العقل والقلب، اللذين اضطرما بفعل إيمان الآخرين. ان التوجيه التعليمي وحده غير قادر على أن يوقظ الإيمان في السامع، اذ في التعليم وحده يؤمن المعلم ولكن عندما تحب الحقيقة وتعاش توقظ الإيمان. ان إيمان أمك، أو معلمك، أو صديقك، أو أي شخص آخر من حولك هو الذي أوقد إيمانك. في بادئ الأمر، عشت معهم في إيمانهم من دون أن تعرف الإيمان، ومن ثم نشأ إيمانك واصبح محددا، وأخيراً، وجد القوة ليقف منتصبا. مثلما تشتعل شمعة عند التماسها بلهيب شمعة أخرى هكذا يوقد الإيمان إيمانا آخر.

بالطبع ان الله هو الذي يصنع الإيمان، حيث يجذب القلب ويلمس الروح، كما ينتزع بذرة حياة جديدة من كلمة ما يتم سماعها، او من شخصية معينة يتم اللقاء بها او من صورة ينظر إليها. فالله هو الذي يدعو الفرد - لكنه يدعوه كإنسان متورط بشكل لا يمكن الخروج منه بشتى

الارتباطات اللازمة للحياة. الإنسان للإنسان هو الطريق إلى الله، فالفرد المنعزل عن بيئته ببساطة هو غير موجود. ان هذه الارتباطات تسهل علينا أن ندرك في إيماننا موقف أولئك الذين بواسطتهم استيقظ الإيمان، فالأسلوب الذي صور فيه معلمونا الحقائق الإلهية، والطريقة التي تخيل فيها أحد الأصدقاء حياة طاهرة، والدوافع التي بدورها أدت دورا مهماً في حياة الشخص الذي يؤثر فينا تأثيرا عميقا، العاطفة التي تبديها عائلة ما في الاحتفال بيوم العيد والجدية العميقة وهي غير منتبهة إلى ورعها الشديد الذي اعتادت أمنا أن تصلي بهذا الشكل، والإصرار الذي نالته من ثقتها في الله – بما في ذلك مشاعر الحب وعدم الحب او حتى ردود الأفعال المفاجئة التي تميز أجواء الطفولة، إضافة إلى العادات الخاصة لبيئتنا الاجتماعية أو التقاليد المحلية.

ان الله هو الذي يصنع الإيمان وهو الذي يوقظ الإيمان في قلب من يدعوه، قد يوقد قلبا في بيئة ميتة تماما. وقد يجعل اللهيب ينفجر عند اتصاله بالكلمة او حتى من دون شيء على الإطلاق. " الله قادر من بين هذه الاحجار ان يصنع أطفالاً لإبراهيم - " أساساً هذا ما يفعله على الدوام، إذ ما هي نفع قلوب وكلمات الناس قبل أن توقظها الحياة الإلهية؟ ولكن النعمة تتبع طريق الأشياء الإنسانية. يوقظ إيماننا من خلال الاتصال بإيمان أولئك الذين تسلمنا حياتنا، وتوجيهنا وتعليمنا المبكرين منهم. ان الإيمان الذي تعيشه عائلتنا وأصدقاؤنا بما فيه من شدة ومميزات خاصة يستمر إلى أن يحيا فينا.

ما من وجود لإيمان منعزل مستقل. نحن بحاجة فقط إلى أن نتصور للحظة ماذا يحدث لو كان للإيمان كله أن يتوقف عن الوجود من حولنا. لا اعني بذلك ان على العالم أن يصبح فجأة معاديا لإيماننا، لان العداء بذاته يتضمن علاقة، فبإمكانه أن يحتدم او حتى يثار إلى حد المجازفة بكل شيء.... ليس ذلك ما اعنيه.

دعونا نتصور جوا من عدم الاكتراث، أو بالأحرى لامبالاة تامة. هل حقا بإمكاننا ان نكون مؤمنين في جو كهذا؟ هل نحتفظ بإيماننا؟ لاشيء مستحيل عند الله، لكن الخبرة تعلمنا ان الإيمان لن يولد في جو كهذا، وحتى لو كان ليولد، سيجمد إلى درجة الموت، مثل نبتة صغيرة جدا في نهر جليدي. يستمد إيماننا الشخصي حياته من إجمالية إيمان من حولنا، الذي يرجع من الزمن الحالي إلى الماضي، غير ان هذا يعني الكنيسة.

تعني الكنيسة " نحن" في الإيمان، فهي المجموع الكلي المجتمع الكامل للمؤمنين، وهي الجماعة المؤمنة. كما انها ليست مجرد صلاة مسيحية التي يجب أن تقول " نحن " بل الإيمان أيضاً. وهذا الأخير مغروس فينا بشكل متساو اكثر من أن يكون مجرد مجموعة من الأفراد. فهي حركة تنبعث منهم جميعا. ان الجماعية أو الاجمالية الحقيقية هي شيء يفوق الجماعة البسيطة لبضعة أفراد، إذ انها هيكل حي هائل كل فرد فيه هو عضو. فالمئات من الناس الذين يقفون أمام الله كجماعة يمثلون اكثر من كونه مجرد إضافة مئات الأفراد، وهم يؤلفون مجتمعا مؤمنا حيا، وهنا لا نقصد مجرد مجتمع بسيط في المعنى الذاتي المحض للكلمة، على انه دلالة ملائمة للشعور الذي ينشأ عن احتياجات لحياة اجتماعية بسيطة الأفراد، كلا، إن اصل المجتمع الذي نحن بصدده في هذا السياق، وثباته وقيمته، يستمد من شيء خارج الحاجات المجتمعية للفرد، حيث تأتي من شيء آخر، إذ تستمد الثبات والقيمة من شيء آخر، وهنا أشير إلى الكنيسة.

ان الكنيسة هي مؤسسة غرسها المسيح في التاريخ وسط البشرية. كما تحتضن ليس " بضعة أفراد أو حتى جميع الأفراد - " لان هذه مجرد مجاميع عددية – لكنها تحتضن الجنس البشري بأسره، فالإنسانية تكمن في شموليتها. دعيت الكنيسة إلى حياة القداسة والى ولادة جديدة في يوم

العنصرة. إن هذه الاجمالية المسيحية شيء ملموس واقعي وسيستمر بالبقاء، حتى لو كانت المسألة من ناحية الأعداد ولو قل عددهم ليصلوا إلى ثلاثة أعضاء، فالكنيسة ليست نتيجة إرادة أو فكرة البشر، كما انها ليست مجرد وجود للفرد المسيحي لكنها قائمة بموجب الحكم الإلهي، وبفضل مؤسسة مقدسة وخلق بموجب مشيئة المسيح.

الكنيسة التي أسسها المسيح، كونها ثمرة كلامه، تتكلم مع الفرد بسلطان " فان يرفض حتى سماع الكنيسة، فليكن بالنسبة لك وثنياً وجابي الضرائب ." ان نطاق الحياة المسيحية لكل فرد، " ففيها لا نعد غرباء، إنما ساكنون في البيت نفسه. فهي الجوقة التي لكل فرد فيها مكانه، وهي مجموعة مؤمنة، مناضلة، مقدمة الذبيحة ومختلفة.وفي وحدة الحياة المقدسة يسهم الكل، وهي الجسد بعد أن كان في الرحم الذي حمله.

في الكنيسة تعلقت القوة الفدائية لله بجذور الوجود، فبدا الخلق الجديد يظهر فيها - سماوات جديدة وارض جديدة، وقد نقول دائما" *طبيعة جديدة* " فالان أصبحت طبيعة جديدة بفضل النعمة فقط.

الكنيسة عروس المسيح والأم الطاهرة لكل مؤمن. ففي بشارة الكلمة وفي جرن المعمودية تنفتح أحشاؤها: تظهر حياة جديدة للوجود حيث تأتي من لدن الله. ان العلامات المؤثرة: الأسرار تعود إلى الكنيسة وليس إلى حياة الفرد، كما ينتمي لها كل الأشكال والقوانين المقدسة للحياة الجديدة التي يتوغل فيها الفرد.

الكنيسة بحد ذاتها تؤمن بل بالأحرى تعيش بواسطة الإيمان، ان لإيمان الكنيسة ميزة خاصة به، فهو يحتضن الجميع ومتعدد ومع هذا يبقى واحدا، وهو مليء بالتوترات ويتكون بعد الأفكار، ولكن برغم ذلك يظل وحدة تامة. ينغرس إيمان الكنيسة ويدرك في هياكل أخرى غير العقل والنفس ألا وهي إيمان الفرد، إذ انه يتحلى بعمقه وعظمته، كما انه يتعرض للأزمات التي يتصف بها هي الأخرى. وهنا لنا بهذا الصدد لنخوض هذه الأمور. في هذه الحياة لإيمان الكنيسة يشترك المرء في أشكال شتى.

ان الكنيسة هي المبدأ الأصلي الذي تنبع منه حياة الفرد، فهي الأرض التي تسنده وهي الأجواء التي يتنفسها - وهكذا نعود إلى السؤال الذي يطرق مسامعنا عند الشروع في دراستنا ولم يكن بوسعنا بعد أن نفهمه: الكنيسة هي وحدة حية تتغلغل إلى الفرد، فمنها يستمد حياته دون الحاجة إلى معرفة السبب. ولكن بإمكان الكنيسة ان تكون بعيدة عن الفرد حيث تسحب نفسها بأسرها وتواجهه، من المذبح بسلطتها المقدسة. هذا ما تفعله عندما تعلم وتميز وتحكم وتأمر. توكل الحياة الجديدة إلى الكنيسة وليس في الفرد، وذلك من خلال التعليم الإلهي وسر المسيح والسلطة المقدسة وعلى غرار ذلك توكل إليها الخلافة لنقل الإيمان وتوالده.

إنّ دور الكنيسة مادي تماما: فهي التي تحملنا وهي الأرضية التي نستند إليها، والجو الذي نعيش فيه، إن الله بالتأكيد هو الذي يعمل من خلالها، فبواسطة الكنيسة يعطى الفرد محتوى الإيمان والقدرة على الإيمان. وتصبح الكنيسة معلمة بحوزتها كل هذه الأمور، وفي ممارسة السلطة تصبح قاضيا وهنا أيضاً يعمل الله من خلالها وحدها وليس من خلال الأفراد حتى لو كانوا من اكثر الأشخاص موهبة " وذكاء". ان الله يعلم ويحكم على إيمان الفرد، بواسطة الكنيسة، حسبما قال *:"من يرفض السماع حتى إلى الكنيسة فليكن بالنسبة لك كالوثني والعشار .."*

ان هذا المعنى المزدوج للكنيسة - وهي أن تحيا في كل مؤمن كما ان هذا الأخير يحيا فيها – وهي تفرض عليه تعليمها وقوانينها – يبدو في حالة العقيدة ذا حدة خاصة، فشأنها شأن الشخص الذي يعيش دون أن يكون واعيا الحقيقة، ولكن حالما تواجهه عقبة او خطر ما، يدرك حينها ما يفعل ويغير موقفه إذ يتأمل ويصبح مسؤولا. إن الأمر كذلك بالنسبة للكنيسة: فهي تؤمن دون أن تعي وعيا خاصا محتوى الإيمان الغني، إذ تحي ببساطة في عالم الإيمان مثلما يعيش الناس في عالم الأشياء،كما تحي الكنيسة على تاريخ إيمانها مثلما يفعل الناس في مسيرة حياتهم الطبيعية ولكن فجأة يظهر سؤال بخصوص تيار العصر، أو تتفاقم أزمة ما بما يتعلق بالمعتقدات الدينية لأفراد أو جماعات معينة: فعلى سبيل المثال، العلاقة بين النعمة وقابلية الإنسان الغير طبيعية، أو الطبيعة الجوهرية لسر الافخارستيا.... الخ. تتعرض الكنيسة كما هو الحال بالنسبة لأية حياة معرضة للخطر إلى التراجع والانسحاب بسبب الجبن، وتدرك ما هو في خطر، وتميز المعنى الصحيح لعقيدة الإيمان من المعنى المزيف. وللقيام بذلك، قد توسع تعليمها بمزيد من الدقة أو تقومه بتحديد مقدس، كرموز الإيمان في قانون الإيمان الذي يتلوه الجميع قبل تلقي المعتنقين للدين المسيحي في المعموذية، وقد تجرد الكنيسة أيضاً الحقيقة من الخطأ بما يتعلق بمسألة ما، وذلك بمنطق حاد، ومن ثم نحظى بالعقيدة بالمعنى المحدد ( شريعة الإيمان the lex credendi)، قاعدة الإيمان.

تعني "العقيدة " أن إيمان الكنيسة قد اصبح فعلا واعيا لذاته: أي أنه قد فصل معناه عن أي مفهوم خاطئ وقدم لمفهومه معنى دقيقا. فالعقيدة إذاً ليست بشيء سوى كنيسة مؤمنة بحد ذاتها، في اللحظة التي تحمي فيها حياة الإيمان بغاية الوضوح والقوة وتفرض على الفرد "قاعدة الإيمان".

ان هدف العقيدة دائما هو واحد ألا وهو المحافظة من خلال كليتها، على سر الوحي. ان ذلك الذي يأتي من لدن الله الكلي القداسة – وغير المدرك، رب كل الحقيقة والمستقل عن العالم- لا يمكن أن يدركه العقل البشري المجرد، لان هذا السر ليس خارج نطاق الإنسان فحسب، بل يرفعه بعيدا عن رضاه الذاتي ويضعه في الخطأ. وهنا تكمن المسألة الحرجة للوحي، فهو ذلك الأمر الذي يثور ضده الإنسان. ان كل خطأ عقائدي يتجه أساساً ضد السر، ويسعى دائما، بشكل أو بآخر ومن وجهة نظر أو من أخرى، إلى أن تبجل سر الوحي الذي ليس جليا على الدوام، وهكذا تنتشر البدع عن طريق رجال متدينين للغاية، وهم أناس يقصدون الشيء جيدا ويرون بنظرة أعمق، ويظهرون للعيان ما كان غامضا ويكافحون ضد أي إفقار للحياة المسيحية أو أي سوء فهم لأفراد جادين ومتحمسين، ولهذا غالبا ما نشعر بالشفقة عليهم – وكأننا نميل إلى كره السلطة التي تعارضهم. الأهم من ذلك كله هو أن ممثليها غالبا جدا ما يكونون أناسا لا يستحقون الاهتمام، وخلال الصراع، يبدو ان أسوأ السمات الإنسانية تفرض- أن كلمة(الارثدوكسية) قد اقترنت بمعنى مشمئز ليس من دون سبب. ولكن ذلك لا يحوّل ما قلناه أعلاه عن ما هو حقيقي، أي أن غاية البدع الأخيرة، حتى تلك التي تنبثق عن افضل المؤسسات والتي تبدو مرتبطة بأنبل الصفات الإنسانية، هي القضاء على سر الوحي المقدس وهكذا تبطل الإيمان.

فالوحي يعني أن كلمة الله تتوغل في العالم الإنساني وعليه يجب أن تفوق العقل البشري، إلاّ أن هذا السمو هو أساس خلاصه ومهم جدا أن يحافظ على السر. تظهر البدع من خلال ظروف خاصة دائما: أي من أفكار ومواقف وأنماط وميول معينة ليوم ما، وبرغم الفكر العميق والنقد الثاقب والدوافع النبيلة، في النهاية، عندما يعطي الأفكار والأعمال قولها، نجد ان بنية حقيقة الإيمان المكتنفة بالأسرار قد تمزقت.

هذا ما تعارضه العقيدة. غالبا ما تلقى معنى ما ان العقائد هي مجرد إدراكات ومفاهيم بحتة لذلك ينبغي أن تبقى حيّة. أن كل من يقول هذا يظهر انه لم يفهم كل ما في العقائد. بالطبع ان العقائد تتضمن أفكارا ومقاصد مجردة، ولكن ان نظرنا عن كثب كيف أن تلك المقاصد تصاغ معاً، وكيف أن الأفكار المختلفة تتعلق الواحدة بالأخرى، نرى حينئذ إنها تكمن حول السر لتحميه. فالعقيدة ما هي إلا حصن منيع وحلقة حامية للأصل وللعمق وللحياة.

العقيدة تواجه الفرد، وهنا معارضة الكنيسة التي تطرقنا لها أعلاه، بإمكانها أن تكشف النقاب عن نفسها في ضوء حاد من نوع ما بما يتعلق بالأفراد. وقد يحدث أحد الأمرين: أما أن يدرك المؤمن ان الكنيسة هي التي تتكلم حقا والمسيح من خلالها، متيقنا ومعترفا بأن عليه أن يخسر نفسه كي يجدها، أو أن يرفض كل شيء وهكذا ينهار إيمان الفرد مع المجتمع، وليس مع المجتمع في دائرة صغيرة أو في جماعة أو في حركة ولكن مع كلية الكنيسة الحية، ومن ثم يصبح إيمانه فرديا في أسوأ ما في الكلمة من معنى، يصبح إيمانه شاذا "هيريسي"، "باليونانية هيرسيس hairesis " وتعني "خيار ".

ولكن إنْ أدرك أحد الذين يواجههم قرار كهذا بأن الأمر هو مسألة اختبار، فان يقبل ما يعرض عليه وإن كان بوسعه أن يقدم، وبكل صدق، التضحية الصعبة في الغالب المتمثلة برأيه الشخصي عينه في مواجهة العقيدة، مقتنعا بأن المسيح نفسه من يتكلم في العقيدة من خلال كنيسته – هكذا تخترقه العقيدة. ان ذلك الشيء الذي يصطدم به من الخارج أولا- بكل صلابة كالصخرة هو الذي تنفرد به الكنيسة عندما تكافح، وهي مزيج من أناس متوسطي المقدرة والمحدودية الفكرية والاستبداد والعنف وعناد الأفراد الذين يعزمون على أن يكونوا على صواب وينتصروا وكل ما قد يحدث في حالات كهذه – وهكذا تصبح العقيدة جزءاً لا يتجزأ من حياته، وتصبح بالنسبة له بمثابة الفضاء والنظام والقوة. من هنا فان العقيدة هي التي تحدد حياته في جوانبها كافة، وهي التي تدعمه وتنير حياته كالأرض تحت قدميه والتي يستند إليها المؤمن، كجزء حي فيه يرشد خطواته في العالم.

قد يكون للصدَام مع العقيدة جانبه الإذلالي للغاية، وربما يعارض حكم ومشاعر الفرد على نحو عنيف مع " قاعدة الإيمان "، والحالة الإنسانية التي ينويها _ ولكن نادراً ما تكون هناك خبرة مؤكدة ومعززة للغاية كتلك التي من خلالها يتكئ المؤمن على العقيدة، وباعتماده عليها يواجه العالم.

ان الإيمان كمقدرة شخصية لحدس مباشر أو قدرة عدوانية وإبداعية؛ غالبا ما نجده معارضاً للعقيدة التي تتهم بأنها تثبط الحياة المسيحية وتقتلها. بإمكان هذا الأمر أن يحدث بالطبع، وقد حدث في الواقع، فمات الإيمان الحي، أو ربما لم يعد ناجحاً بعد؛ على الاقتران بعنصر العقيدة، ومن ثم اجتاز سبيله وحده. وهذا يفسر لنا لماذا تحمل جميع أولئك المؤيدين للعقيدة مسؤولية كبيرة جداً؟.

برغم ذلك كله، ينبغي أن يكون الفاصل الحاد وقرار العقيدة قائماً. ان الوجود التاريخي للكنيسة، الذي يجتاز على نحو متواصل من التلقائية إلى الوعي والمسؤولية التي تنبع منه؛ يقتضي ذلك، كما ان حياة الفرد هي الأخرى تتطلب ذلك، لأنها مهما تكن تلقائية الحياة أمراً حسناً،فلابد من أن يأتي وقت ينبغي لنا فيه ان نقف راسخين، ونختار ونتخذ موقفاً ما.

يقتضي الإيمان أيضاً نضوجاً وميزة وتقدماً في السن. ان العقيدة تعني حقيقة صفة الإيمان إذا ما عاشها المرء وأدركها إدراكاً ملائماً، فلدى مواجهة العقيدة، قد يقع الإيمان التلقائي والحي

في أزمة، وهنا علينا أن نسلم أنفسنا لهذا على انه أمر لا محال. ولكن ان يظهر الإيمان منتصراً على الدوام، وان يشبه العقيدة فيتطلب بذلك روح القرار ووعي المسؤولية والمصير الذي لا يمكن لأي شيء ببساطة أن يحل محله، فليس له إذاً أن يخسر طاقته النابضة بالحياة بل عليه أن يفوز فقط في جدية وألم النقاش.

هكذا يتسع الإيمان، وينضج حتى النهاية حيث تخترق العقيدة تدريجياً حياة المؤمن ومواقفه. تتغلغل في داخله إلى حد تؤثر فيها على حياة المؤمن – باستثناء لحظات معينة من التحذير- على انها لا تعد قوة توجيهية مدركة او قاعدة، بل اكثر من ذلك على انها دليل في الطريق نحو حرية أسمى.

# الفصل العاشر

# الإيمان والكنيسة: السر

لقد سألنا أنفسنا، ماذا تعني الكنيسة بالنسبة للمؤمن؟، رأينا كيف ان إيمان الفرد مرتبط بإيمان المؤمنين الآخرين، إذ ان مضامين الإيمان تأتيه دائما من المؤمنين الآخرين، وبسبب ذلك هناك توتر مستمر ينفرد به الإيمان الذي لا ينبثق اصله من ما هو إنساني. ان الله بالتأكيد هو الذي يوقظ الإيمان، لكنه يوقظه في البشر، وهكذا فالإنسان هو الطريق المؤدي إلى الله.

لمسنا أيضاً حقيقة، ألا وهي ان إيمان الفرد يتكون في إيمان الجماعة، والإيمان ذاته قائم في الكنيسة عينها، وفي الفرد الذي ينتمي إليها، فيؤمن الفرد؛ وبه تؤمن الكنيسة التي لا تقف أمامه فحسب، بل انها بضمنه، وهي قائمة في جذور تلك الحياة الإلهية التي تأتيه من لدن الله، حيث تكون " الأنا" و"نحن " بالتحديد، أي الفرد والمجتمع؛ وحدة حية. وأخيراً لاحظنا كيف ان الكنيسة تحدد العقائد في الدفاع عن نفسها والصراع الذين يواجهه الفرد، وحال قبولها العقائد؛ تضع الأساس لإيمانه الشخصي.

ينبغي لنا الآن أن ننظر إلى المسألة من وجهة نظر أخرى. في رسائل القديس بولس الرسول غالباً ما يرتبط الإيمان ارتباطاً وثيقاً بالعماذ، إلى حد يبدو فيه الاثنان وكأنهما متماثلان. فيبدو ان " تعتمذ"و"تؤمن" يقصدان الشيء ذاته، او قد يتمثل العماذ بغرس بذرة، وتأثيرها المباشر هو الإيمان.

ماذا يعني العماذ؟. انه ليس مجرد انضمام الفرد إلى الجماعة، ولا هو تكريس لالتزامه، كما انه ليس عملاً يتم من خلاله تولي المجتمع مسؤولية المعتنقين الجدد، ولكنّ في العماذ هناك شيئاً اعمق من ذلك بكثير، حيث تنغرس بذرة الحياة. فالله يغرس بنية جديدة ونشاطاً جديداً في داخل الإنسان الذي عاش إلى تلك اللحظة بوجهة نظر دنيوية محضة، وهكذا توقظ فيه حياة جديدة بمعناها الخاص وقانونها الذاتي وقوة إدراكها الخاصة بها، وكأن الأمر بمثابة شجرة ذات ثمار برية تُنتزع بشدة من بيئتها الطبيعية حالما يطعمها المزارع بشيء ما، أي انه يضع فيها عنصراً جديداً من شيء آخر حي، وهكذا تستطيع الشجرة القديمة حمل ثمار جديدة، وهذه الثمار بدورها تعود إلى الشجرة القديمة، لأنها اكتسبت فقط حيوية جديدة من شيء حي.

قد يساعدنا هذا على توضيح ما يحدث في العماذ، باستثناء شيء واحد وهو ان الاختراق في العماذ اعقد واعمق حيث ان محور وجودنا بالذات، وجذور الحياة عينها تقلع وتغرس في الحضن الإلهي لتستقي منه حيوية جديدة.

لقد تم ذلك فعلاً بوساطة المسيح، إذ يولد الإنسان فيه من جديد من خلال الروح القدس كي يشترك في حياة المسيح الإلهية والإنسانية. من هنا يبني الإنسان حياته الخاصة، إذ يعمل ويؤمن ويحب، بالطبع هو نفسه الذي يحيا، حيث تتجلى طبيعته الإنسانية بأكملها وتتجسد في أعماله، لكن الأهم في عين الله و الأبدية هو شيء آخر.

ان الشيء الجوهري حقيقة، هو النبع الجديد: حياة المسيح – المسيح الذي قام فيه. فقط حينما يهب الإنسان نفسه بكليتها إلى المسيح الذي يدعوه، فيصبح هو المسيح حقيقة، وهكذا يتمناه الله أن يكون.

ولكن كيف لنا أن نصف هذه الحالة للإنسان المولود من جديد؟ بالتأكيد ليس كفرد منعزل، بل عضو في الكل في الكنيسة. فبالطبع على المستوى الطبيعي المحض، ليس الناس مجرد أفراد ونماذج معزولين: بل يقيمون علاقات مع بعضهم بعضاً دائماً، وكل واحد لا يجذبه الآخرون يكّون قيوداً، وينفر من استقلاليته الخاصة، ولكن تتجلى الوحدة في جميع الأفراد وتعانقهم جميعاً.

إنّ الطبيعة الإنسانية تقتضي المشاركة في حياة جماعية، وبالتحديد الجنس البشري المصنف إلى أجناس وقوميات وعائلات، فبموجب هذا الجانب الاجتماعي للوجود، تسهم الإنسانية في الولادة الجديدة. هذا ما حدث في العنصرة عندما يدخل الروح القدس في مسيرة تاريخ العالم مدشّناً بذلك التاريخ المسيحي، وهذا ما يحدث كل مرة تتوجه فيها كلمة الإنجيل إلى الأمة " ككل "، من خلال جميع أفعال العبادة التي تشترك فيها الابرشية، هذا ما يتكرر في الولادة الجديدة للفرد لان هذا الكل هو من ضمنه، وقد نقول حتى بأنه هو الكل إلى الحد الذي تتجه حياته نحو هذا الكل، إلاّ ان الحياة الاجتماعية التي تنبعث من هذه الولادة الجديدة بما يتعلق بالفرد، هي العنصر الآخر للحياة المسيحية: الكنيسة. وهذا بالتأكيد ما يجمع الأفراد مع بعضهم البعض، برغم كل شيء يبقى الأمر بعيداً عن الأرقام، طالما يكفي " ان اجتمع واحد أو اثنان باسم المسيح " أن يكونوا الكنيسة. نجد الصورة الجديدة ذاتها في الكنيسة: المسيح ذات القوة الجديدة والنعمة، والروح القدس: القوة الروحية عينها. ولكن برغم الصفة الإنسانية أو بالأحرى الإنسانية جداً، بإمكاننا القول بان الحياة الإلهية هي التي تعمل في حياة الكنيسة، من خلال ظهوراتها ومن خلال تاريخها.

ان الذات المسيحية التي أسست على العماذ تنطلق بفعل الإيمان نحوه، والذي منه تنبع، بيد انها لا تقوم بذلك على أساس الفرد المنعزل عن الآخرين بل تقود الآخرين معها، إذ ترافق كل واحد حتى ان لم تكن فعلاً على علم بما يحدث ظاهرياً.

يواكب المؤمن الكنيسة بإيمانه، أي كلاً من سلطتها الفعالة ونفوذها، فالكنيسة قائمة أمامه كما هي إذ تحمله وترهقه وتربيه بحياتها أمّا عظمتها فتحتويه على نحو حاسم، واتساعها يوسع أفقه وحكمتها تمنحه قاعدة للحياة وسلطانها يوسع نطاق عمله، كما تعترضه بشكلياتها وتقسيه ببرودها، وكل ما هو عنيف أو أناني، أو قاس، أو سوقي بشأن الكنيسة؛ له تأثير في إيمان الفرد الأمر الذي يجعله أحياناً ملزماً بتعزيز فكرة الله ليس في ظلام هذا العالم فحسب، بل في ظلام الكنيسة أيضاً. وبالطبع، نمتلك اندفاع النفس الحر في السر وجهاً لوجه مع الله وحده، بيد ان هذا الحديث لا يتم في الفراغ، فحيث يغرس جذوره تنغرس أيضاً جذور الكنيسة.

أن نأمل تجاهل نقاط الضعف المتأصلة هذه لن يكون علامة حب أو ولاء، بل يكشف النقاب عن سطحية الفرد. فطالما كان اكثر المؤمنين حباً وولاءً هم أولئك الذين أدركوا إدراكاً عميقاً الهوية المؤلمة لهذين الوجهين للكنيسة.

يربط القديس بولس الإيمان بالعماذ ربطاً حميماً، ونجد ارتباطاً مماثلاً لهما لدى القديس يوحنا، وبالتحديد بين الإيمان والافخارستيا في الاصحاح السادس من إنجيله عندما يصف الوعد في كفرناحوم، يتحدث الرب عن " الخبز الحقيقي " الذي يهبه الآب، والذي هو بذاته، سيعطى من خلال الوعظ، ويتناولونه في السماع.

أن تؤمن يعني أن تتغذى روحيا، وتنال الحياة الإلهية التي تهبها الكلمة، وهذا ما تكلم عنه الرب في البدء، ومن ثم يتغير معنى كلامه إذ ان الخبز ليس المضمون الروحي للرسالة فحسب بل طعام الافخارستيا المقدس، ولا يعد " الأكل " حقيقة الإيمان، بل تحقيق لسر الإيمان.
يربط القديس يوحنا الإيمان وغذاء الافخارستيا بالأسلوب نفسه الذي يربط فيه القديس بولس الإيمان بالعماذ، فأن تؤمن وتأكل يعنيان، إن جاز التعبير، صيغاً مختلفة وحالات مغايرة للعمل الأساسي نفسه، فالاتصال الحي للإنسان ينطلق نحو الله بالحقيقة الجوهرية كتلك التي يمنحها الله في المسيح.

ان شكل وجبة الطعام يوحي بأنه لم تعد المسألة تتعلق بالفرد، فاستناداً إلى المعنى الأصلي لكلمة " وجبة"، فإنها تشير إلى حادثة جماعية، أي أولئك الذين يجتمعون مع بعض المتناولين لوجبتهم، وبذلك يصبحون واحداً، طالما للوجبة قوة خفية لجمع شمل الضيوف معاً.

لقد كانت فكرة الوجبة سائدة في الأوقات الماضية حينما كان الناس ما زالوا واعين للمعنى الجوهري الذي يحتوي هذه الممارسات الإنسانية. فقد كانت حساً داخلياً، وجزءاً من النبوءة الأصلية التي كتبت عن الخليقة، ومن حقائق ورموز الوجود التي تشير إلى المسيح الكلمة.

هنا على مائدة الرب، تتم النبوءة حيث يتناول الجميع القوت المقدس الذي به يتّحدون جميعاً، كما تصفه الفقرة الرائعة من كتاب تعليم الرسل الاثني عشر (الديداخي)، إذ تبين كيف ان البذور العديدة لابدّ من أن تجتمع مع بعضها كي تكون قطعة واحدة من الخبز، وكيف ان عصير ثمار الكرم لابدّ من أن يجري صبه بأكمله ليصبح سيلاً من الخمر.هكذا أيضاً المسيح الذي يغذي كل واحد هو حياة الكنيسة، إذ يحيا في جميع هؤلاء الناس، لا في شكل وحقيقة الفرد الداخلية فحسب، بل أيضاً في الصورة البناءة والقوة النابضة للكل.

ان الإنسانية التي تعدّ وحدة تامة، تصبح بالمسيح مسيحية، أي وحدة الله الحية التي هي الكنيسة "جسد المسيح". واكثر من هذا يعبر القديس اوغسطينوس عن فكرة جميلة مفادها ان المتناول لا يقتبل المسيح لنفسه بل ان المسيح هو الذي يتناول ويتحد بالمتناول. فالمسيح الذي يحيا في الكنيسة يقتبل الفرد باستمرار في المشاركة بحياته، كلما يحتفل بسر الافخارستيا.

ان الإيمان هو اتحاد الإنسان بالله بواسطة المسيح، ولكن ليس الفرد المنعزل هو الذي يتحد بالمسيح هنا، بل الوحدة التي لا يمثل الفرد منها إلا جزءاً، وفي المسيح نفسه، إذ ان جميع الأفراد يمثلون هذه الوحدة معاً. علاوة على ذلك، فان العلاقة معكوسة إذ تصبح وحدة الكنيسة الكاملة هي التي تمسك الفرد وتحمله لتسير معه في الطريق نحو الله.

هكذا نحظى بعنصر الإيمان الجماعي الذي ينعكس في ضوء آخر، اعني في السر المقدس. الإيمان ليس فعلاً، أو فكرة، أو استعداداً، أو سلوكاً فحسب، بل يشمل جوهر الوجود. وبشكل أدق، يعني ان الإنسان المخلوق هو في طريقه إلى الله. ان هذه العملية الآتية من لدن الله هي التي تترسخ في جوهر الإنسان، واعني بذلك الجديدة حيث اجتياح الحب الإلهي، أو الحياة الإلهية التي ينبع منها وجود جديد بفعل نعمة الله، ومن ثم يجعل الإنسان المولود من جديد هذه العملية خاصة به شخصياً في تواتر الإيمان.

ان الإيمان حركة تولد باستمرار في سر استحالة الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه. ولكن المسألة في السر ليست مسألة الوجود الفردي، فالله هو الذي يمسك بالإنسانية بما فيها

الفرد، إذ يستحوذ على الفرد، ولكن فقط في الجماعة كوحدة تامة، ويستولي على هذه الوحدة أي الكنيسة كي يصل إلى الفرد من خلالها، أو يبدأ بالفرد ليصل إلى الكنيسة.
يزور الله الإنسان الذي فداه المسيح، ويعيده إلى ذاته. يمكننا القول ان الله هو الذي يؤمن بمكانة الإنسان. ففي عملية الولادة الجديدة، وهب الإنسان حياته برمتها كي تصبح حياة البشر، وهكذا بالإيمان من يصبح مسيحياً يرجع إلى الله، ولكن حياة الله هي التي تجذبه.

ولكن أليس الإيمان فضيلة من " الفضائل اللاهوتية؟". دعونا لا ننسى المعنى الاولي القوي للكلمة: فضيلة إلهية. ان الفضيلة التي يختبرها الله في الإنسان ومن خلاله، هي ذلك النجاح الطاهر، أي النشاط البارز الذي يقدر الله وحده على بلوغه، والذي يتضمن فهم ذاته على انه حقيقة شخصية مقدسة. وبفعل ذلك، يمنحهم اياها، أي فضيلة الإيمان، إذ كأنه" يسكبها عليهم ". ومن ثم هم الذين يؤمنون، أو بالأحرى الله الذي " يؤمن" بهم.

لكن نكون واقعيين اكثر ومتخلين بذلك عن هذه التعابير السامية، نقول ببساطة:"يخلق الله سر الاتحاد به، والذي ندعوه الإيمان على الأرض، يوما ما وفي ضوء الأبدية، سيسمى هذا السر:رؤية (VISION)".

ومع ذلك، ليس الإيمان والرؤية سوى كلمات مجردة أو رموز نسعى من خلالها إلى التعبير عن ما هو غير قابل للتعبير، فالله قد أعطى لنا القدرة على المشاركة في هذا السر الآن والى ابد الآبدين. آمين.